بصائر الإيمان

ثلاثون بصيرة تنير القلوب

تأليف

د. محمد يسري إبراهيم

دار اليسر

بصائر الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤١هـ-٢٠٢٠ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، محمد يسري
بصائر الإيمان
تأليف محمد يسري إبراهيم حسين
القاهرة، دار اليسر ٢٠٢٠م.
٣١٨ص، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٧٤٠
١- الإيمان
أ- العنوان
٢٤٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إليكترونية؛ أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة؛ أو أقراص مضغوطة؛ أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن
مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨
فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com
Email :alyousr@gmail.com
info@dar-alyousr.com

دار اليسر

عضو اتحاد الناشرين المصريين

رقم الإيداع
٢٠١٩/٢٥٨٧٣

ترقيم دولي
978-977-794-074-0

بصائر الإيمان

بصائر الإيمان

ثلاثون بصيرة تنير القلوب

تأليف

د. محمد يسري إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله المتفضِّل على عباده بنعمة الإيمان، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على النبي العدنان، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد:

فإن أكبر المنن وأعظم النعم في هذه الحياة بعد نعمة الخَلق والإيجاد هي نعمة الهداية للإيمان، قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده الذي كتب في القلوب الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢]، وهو جَلَّ وَعَلَا دون سواه مَن حبَّبه وزيَّنه في قلوب أهله، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧].

وهو سبحانه مَن تفضَّل على القلوب بإدراك حقيقة الإيمان، وذوق حلاوته، وفي الحديث: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١).

فمن اتَّصل الإيمان بقلبه، تنعَّم بإدراك النور الذي يشرق في نفسه، فيخرجه

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الهداية والتصديق والبصيرة والفرقان.

فشأن أهل الإيمان أن ينعموا بأنوارٍ في قلوبهم وأعمالهم، وسائر مناحي حياتهم، يغمرهم من فوقهم، ومن تحتهم.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٢٨].

وهذا النور الدنيوي يمتدُّ إلى حياة القبور، ثم عند الحشر والنشور، وعند المرور على الصراط ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [الحديد:١٢].

﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم:٨].

وعن أنوار الإيمان تنكشف الحقائق، وتنجلي المعارف، وتنبعث الطُّمأنينة، وتَسري السكينة، ويُبصر العبد بالإيمان ما كان خفيًّا من العلوم والمعاني، ويهتدي إلى ما كان عنه قصيًّا، فيتقي أسباب الضلال، وطرائق الرَّدى، ويدرك مسالك الحق والهدى، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأنعام:١٠٤]، ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

ومتى حصلت للعبد البصيرة في دينه، كان الله معه، فلم يزلَّ، ولم يضلَّ، ولم يهلك في الدنيا، ولا في الآخرة.

قال تعالى عن الدنيا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].

وقال سبحانه عن الآخرة: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الزمر:٦١].

وقال تعالى: ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وللإيمان مجالس فيها يزداد بالتدارس، وفيها يقوى بالتباحث، فهذه المجالس قوتٌ لقلوب المؤمنين، ورواءٌ لأرواح الصالحين، بها تُرفع الكربات، وتعلو الدرجات، ويرضى الرحمن، ويُخزى الشيطان.

مجالس للتواصي بالمعاني الإيمانية، وللتبصُّر بالحقائق القرآنية، وللصبر على المكائد الواقعية.

وهذه المجالس موروثة عن الصحابة فمَنْ بعدهم من الصالحين:

يقول ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعالوا نؤمن ساعةً، تعالوا فلنذكر الله، ونزدد إيمانًا، تعالوا نذكره بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته»(١).

وقال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اجلسْ بنا نؤمنْ ساعةً»(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووجه الدلالة منه ظاهرة؛ لأنه لا يُحْمل على أصل الإيمان؛ لكونه كان مؤمنًا، وأيَّ مؤمنٍ، وإنما يُحْمل على إرادة أنه يزداد إيمانًا بذكر الله تعالى»(٣).

إنه تزوَّد من زاد الإيمان؛ ليتحول إلى حقيقة عملية ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١٠٦٥).
(٢) علقه البخاري في الصحيح (١/ ١٠).
(٣) فتح الباري (١/ ٦٧).

إنه تزوَّد من التَّصديق واليقين ونفي الارتياب ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

إنه تذاكرٌ وتباحثٌ لأوامر الله وشرائعه، وتواصٍ بالصبر على أداء أمانتها على الوجه الذي يرضيه عن عباده المؤمنين.

ولقد كانت تلك المجالس مُعَنْوَنَةً بـ «بصائر الإيمان»، وقد تَتَابعَتْ إلى ثلاثين مجلسًا، وتعددت موضوعاتها، وتنوَّعت بتنوُّع شُعَب الإيمان، ثم عني بتلك المجالس فضلاء كرام ففُرِّغت ورُتِّبت وأُعدَّت للنشر، عسى الله أن ينفع بها مَن كتبها، ومَن قرأها، ومَن أعان على نَشْرها، آمين.

اللهمَّ حبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على المبعوث رحمةً للعالمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو عبد الله

محمد يسري إبراهيم

الدوحة

٢١/٣/١٤٤١هـ - ١٨/١١/٢٠١٩م

البصيرة الأولى
في الاعتصام بالكتاب والسنة

إن جِماع أصول الدين، وأهم معاقد الحق واليقين، هو الاعتصام بوحي الله، والتمسك بكتابه وأَمْره، والتحاكم إلى سُنة رسوله ﷺ، ذلك الصراط اللاحب، والسبيل القاصد إلى رضوان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

مفهوم الاعتصام بالوحي:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

وقال ابن مسعودٍ- رحمه الله ورضي عنه- في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، قال: «الجماعة»(١)، وقيل: حبل الله: القرآن، وقيل: الإسلام، وقيل: الإخلاص(٢)، وكلها معان متقاربة، مؤداها واحد، ونتيجتها واحدة.

فمَن أراد النجاة والفلاح، فعليه أن يعتصم بالقرآن، وأن يُخْلص لله وحده، وأن يتمسك بالإسلام الذي جاء به نبينا ﷺ، وهذا كله يُنتج تآلف المسلمين واجتماعهم، وترابطهم وتماسك مجتمعهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٦٤٤).

(٢) راجع: تفسير ابن جرير (٥/ ٦٤٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٣، ٧٢٤).

يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «يريد بذلك- تعالى ذِكْرُهُ-: وتمسَّكوا بدين الله الذي أمَرَكم به، وعَهْده الذي عَهِده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله»(١).

ويقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾: الحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة: السبب الذي يُتوصَّل به إلى البُغية... فأمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين»(٢).

وهذا شرحه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعبارة أوضح، فقال- وهو يُبيِّن حقيقة الاعتصام بكتاب الله-: «وهو تحكيمه- أي: الوحي- دون آراء الرجال، ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجيدهم، فمَنْ لم يكن كذلك، فهو مُنْسَلٌّ من هذا الاعتصام، فالدين كلُّه في الاعتصام به وبحبله؛ علمًا وعملًا، وإخلاصًا واستعانةً ومتابعةً، واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة»(٣).

الاعتصام بالكتاب والسُّنة طريق وحدة الأمة:

الاعتصام بالكتاب والسنة هو طريق وحدة الأمة، وهو طريق اجتماع الكلمة، وترْك هذا الكتاب، وترْك تلك السنة سبب للفرقة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: لا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عَهِدَ إليكم في كتابه، من الائتلاف والاجتماع على الطاعة.

---

(١) تفسير ابن جرير (٥/ ٦٤٣).
(٢) فتح القدير، للشوكاني (١/ ٤٢١).
(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٠٣).

ثم قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذۡكُرُوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾، فكما أمر تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالوحدة والألفة والاجتماع، نهى عن الفُرْقة والافتراق، فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، يعني: في دينكم، كما افترقت اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخۡتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣].

أي: ولا تتفرقوا فيه يا أُمة الإسلام؛ حتى لا تكونوا كغيركم شيعًا وأحزابًا وجماعات، بل الزموا كتاب الله، وسُنة رسول الله، وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، تكونوا الأمة الناجية يوم الحساب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمۡ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

والمعنى: إن الذين فرقوا دينهم، واختلفوا فيه، وأقروا ببعض، وكفروا ببعض، وأولوا نصوصه على حسب أهوائهم ونزعاتهم، وكانوا شيعًا، كل شيعة تدين برأي إمامهم، وتتعصب له، فأنت- يا محمد- بريء منهم، وهم منك براء، إنما أَمْرهم وحسابهم على الله وحده، ثم ينبئهم في الآخرة، ويجازيهم أحسن الجزاء بما كانوا يفعلون.

وهذا المبدأ الذي أصله القرآن الكريم، شرحته السنة المطهرة، وبينه النبي ﷺ بقوله، وفعله، وحاله، وحذر ﷺ كما حذر القرآن عن المخالفة عن سبيل الاتباع وعن سبيل الاعتصام؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

نصوص الكتاب والسُّنة في الأمر بالاعتصام بالوحي، وترك الفرقة:

وقَد وردت الكثير من النصوص في الأمر بالاعتصام بالوحي، والتحذير من مخالفته، والأمر بلزوم السنة والجماعة، والتحذير من البدعة والفُرْقة، فمن هذه النصوص:

* عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [آل عمران:٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

* وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «هجرتُ إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرف في وجهه الغضب، فقال: **إنمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الكِتَابِ**»(٢).

* وعن جُندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَقُومُوا**»(٣).

* وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**أَمَّا بَعْدُ، فَأَحْسَنُ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧).

* وعن العِرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون، ووَجِلتْ منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

* وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا أَبَدًا، مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، فَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الحَوْضِ**»(٢).

* وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، فقال: **هَذَا سَبِيلٌ**، ثم خط خطوطًا، فقال: **هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ، فَمَا مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ النَّاسَ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ** ﷻ، **فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ، كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ وَأَخْطَأَهُ، كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ، وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ** ﷻ **فِي أَهْلِ بَيْتِي** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]»(٣).

ولقد تقرر عند علمائنا أن سبيل البدع والشبهات والضلالات من أخطر ما يهدد المسلم في دينه، ومن أخطر ما يهدد استقرار المجتمعات، والذين ينكصون

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه الحاكم (٣١٩)، واللالكائي (٩٠).
(٣) أخرجه اللالكائي (٩٥).

عن الاعتصام بالكتاب والسنة- في حقيقة أمرهم- أهلُ جهل وتعصب، وأهل غلو وهوًى، يجادلون في الحق بعدما تبين، ويجتمعون على التهوين من مذهب السلف وانتقاصهم، فَهُمْ على هذا الحال مختلفون في الكتاب، مخالفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب.

أما أهل السُّنَّة وأهل الحق، فكما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُتْرك إلا رسول الله ﷺ، فمَنْ جعل شخصًا من الأشخاص غير رسول الله ﷺ- مَنْ أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة- كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة في الكلام في الدين، وغير ذلك- كان من أهل البدع والضلال والتفرق.

وبهذا يتبين أنَّ أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهُمْ أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها، وأعظمهم اتباعًا لها؛ تصديقًا وعملًا وحبًّا، ومُوَالاةً لمَنْ والاها، ومعاداةً لمَنْ عاداها، الذين يروون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالةً ويجعلونها من أصول دينهم، وجُمَل كلامهم إنْ لم تكن ثابتةً فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بُعِثَ به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات، والقدر، والوعيد، والأسماء، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويُفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقًا للكتاب والسنة، أثبتوه، وما كان منها مخالفًا للكتاب والسنة، أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس؛ فإنَّ اتباعَ الظن جهل، واتباعَ هوى النفس بغير هدًى من الله ظلم.

وجِماع الشر: الجهل والظلم، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، إلى آخر السورة.

وذكر التوبة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لعلمه أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه، وأدناه: ظلمُهُ لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد:٩].

وقال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]»[١].

من معالم الاعتصام بالكتاب والسُّنة: الاقتداء بالسلف الصالح:

والاعتصام بالكتاب والسنة يشمل معالم علمية وعملية متعددة؛ منها: حسن الاقتداء، وكمال الاهتداء، وتمام الموافقة للسلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٣/ ٣٤٦– ٣٤٨).

فمن بعدهم؛ في علومهم ودعوتهم، وحالهم وهَدْيهم، وهذا من أعظم ما ينبغي أن يُعْتنى به.

وقد قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»[١].

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم»[٢].

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتقوا الله يا معشر القُراء، خُذوا طريق مَنْ كان قبلكم، واللهِ لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا، لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[٣].

وقال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتسليم للسُّنن، لا تُعَارض برأي، ولا تُدَافع بقياس، وما تأوَّله منها السلف الصالح تأوَّلناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويَسعنا أن نمسك عمَّا أمسكوا، ونتَّبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه، أو في تأويله»[٤].

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اصْبِرْ نفسك على السُّنة، وقفْ حيث وقف القومُ، واسلُك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم، وقُلْ بما قالوا، وكُفَّ عما كَفُّوا، ولو كان هذا خيرًا ما خُصصتم به دون أسلافكم؛ فإنهم لم يدخر عنهم خير شيء لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم له،

(١) أخرجه اللالكائي (١٠٤)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١/ ٣٨١).
(٢) أخرجه اللالكائي (١٠٦)، وابن بشران (٥٤٩).
(٣) البدع والنهي عنها، لابن وضاح (١٠).
(٤) الجامع، لابن أبي زيد القيرواني (ص١١٧).

وبعثه فيهم، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية [الفتح:٢٩]»[١].

ما يخالف الاعتصام بالكتاب والسُّنة:

وهنا يَتعيَّن بيان أن الاعتصام بالكتاب والسُّنة يضادُّه أمور:

١- اتِّباع الهوى:

إذ يجب على من أراد أن يعتصم بكتاب ربه وسُنة نبيه أن يحذر من أن يتقدم بين يدي الله تعالى ورسوله بقول أو رأي، وعليه أن يلزم دليل الكتاب والسنة، وما استند إليهما من الإجماع الصريح، والقياس الصحيح، أما تقديم آراء الرجال حالًا، فهو ينقض دعوى اتباع الدليل مقالًا، فأقوالُ الرجال يحتج لها بالأدلة الشرعية، ولا يحتج بها على الأدلة الشرعية، فَقَدْ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام:١١٩].

٢- اتباع زلَّات العلماء:

وهنا يتأكد التحذير من الزلات، فلا يُعَد من مسائل الاجتهاد ما ورد فيه خلاف شاذ، أو جرى مجرى الزلة والهفوة من أقوال العلماء، فلا يُتابَعون عليها، ولا يُقلدون فيها، كما لا يُشنع عليهم بسببها، والكاملُ من العلماء من عُدَّتْ سقطاته، والسعيدُ مَنْ حُسبت هفواته، فيؤخذ من قولهم ويُتْرك، والمعصومُ هو النبي ﷺ، وتَتبُّعُ الزلات والتدينُ بالهفوات سبيل قاصد للزندقة، والتحلُّل من عُرى الدين، عياذًا بالله، واتباعُ أهل العلم إنما يصح من حيث كونهم وسائل لمعرفة أمر الله وشرعه فحسب.

---

(١) الشريعة، للآجري (٢٩٤)، والإبانة، لابن بطة (١٢١٦).

ولهذا قال أبو حنيفة النُّعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحلُّ لمَن يفتي من كتبي أن يفتي، حتى يعلم من أين قلتُ»[(١)].

٣- التنكُّب عن فقه الخلاف:

الاعتصام بالكتاب والسنة يلزم له ضبط مسائل الخلاف والاختلاف، وذلك بالتفريق بين المسائل الاجتهادية التي يُقْبل فيها الخلاف، ولا يُطْلب فيها الإنكار، ولا التضييق على المخالف، وبين مسائل الاختلاف التي لا يَسُوغ فيها خلاف، مع تأكيد أهمية إحياء وممارسة أدَب الخلاف في الإسلام، كما أقامه الصحابة والأئمة من بعدهم.

وينبغي أن يُعْلم أنه لا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق على المخالف في المسائل الاجتهادية العلمية والعملية، وبين التحقيق العلمي لها، وبيان ضعف مأخذ المخالف.

وما زال أهل العلم سلفًا وخلفًا يرد بعضهم على بعض مع حفظ المودة، وبقاء الألفة، وما من أحد من أهل العلم إلا راد ومردود عليه.

٤- الخلل في الموقف من التَّمذهب الفقهي:

والقولُ الصحيحُ في التمذهب الفقهي جوازُهُ بلا تعصب، وتقديم الراجح بدليله بلا تردد، والعالِمُ المنتهي فرضُهُ الاجتهادُ، والعامي فرضُهُ التقليدُ، فمذهبُهُ مذهبُ مَن أفتاه، وطالبُ العلم المبتدئُ أشبه بالعامي، والمتقدمُ أشبه بالعالِم، ففرضُهُ الاتباع لأهل العلم بأدلتهم.

ولا يصح الإعراض عن تراث الفقهاء بحجة الاجتهاد ونَبْذ التقليد، كما

---

(١) الانتقاء، لابن عبد البر (ص١٤٥).

لا يسوغ إهمال الدليل الصحيح الذي لا معارض له، وتقديم آراء الفقهاء عليه بلا فحص، ولا تمحيص.

وينبغي الحذر من تحول قضية الأخذ بالدليل عند طائفة إلى نوع من السطحية التي تجمع إلى الشذوذات والغرائب ضعفَ التأصيل الفقهي للمسائل، فإنه نوعُ قول على الله ﷻ بغير علم، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

والأخطر أن يُعد الشذوذ اجتهادًا، وأن تعتبر الجرأة على الفتوى تجديدًا، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

٥- ترك الوسطية في الفتوى:

وهنا يتأكد لمَنْ كان مشتغلًا بالإفتاء أن يرعى جانب الوسطية في الفتوى.

قال الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يَليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال»[(١)].

وإذا كان المفتي يأخذ نفسه بالعزائم، وما هو الأورع، إلا أنه حين يُفتي غيره يلاحظ الوسط المناسب لجمهور الناس، وينبغي الحَذرُ من التسرع في الفتيا، وأعلمُ الناس بالفتاوى أسكتُهم، وأجهلُهُم بها أنطقُهُم.

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا اعتصامًا بكتاب ربنا، وسُنة نبينا، واجتماعًا على

---

(١) الموافقات، للشاطبي (٥/ ٢٧٦).

منهج أهل الاتباع.

اللهم إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين، فمَن للمقصرين؟!

وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين، فمَن للمخَلِّطين؟!

وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين، فمَن للمسيئين؟!

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً   فَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ   فَبِمَن يَلُوذُ ويستجير المُجْرِمُ

أَدْعُوكَ يَا رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا   فَإِذَا رَدَدت فمَنْ ذَا يَرْحَمُ

مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا   وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

اللهم مسِّكنا بالإسلام حتى نلقاك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلِّ الله وسلم وبارك على خاتم النبيين.

البصيرة الثانية

في الخلاص في الإخلاص

النجاة في الدنيا والآخرة إنما تكون بالإخلاص، فإلى السائلين عن دروب النصر، وطرق النجاة إنه الإخلاص، وإلى الباحثين عن العزة والرفعة والتمكين؛ إنه الإخلاص، إلى الذين يتساءلون ويَتلفتون عن حقيقة هذا الدين، وعن مفتاح دعوة النبيين، وعن سبب دخول الجنة، والنجاة من النار، إنه الإخلاص!

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

تعريف وحقيقة الإخلاص:

الإخلاص: يدور على تخليص العبادة من شوائب الشرك والرياء وحظوظ النفس، فالإخلاص في حقيقته هو الصفاء في معاملة رب الأرض والسماء.

الإخلاص: هو التصفية من جميع شوائب النية، وقَصْد المعبود سبحانه وحده بالعبادة، وهو إرادة وجه الله تعالى بالأعمال والأقوال.

الإخلاص: أن تكون عباداتنا لله تعالى خاصةً، لا نريد بها تعظيم الناس، ولا توقير الخلق، ولا جلب نفع أو دفع ضرر دنيوي.

حقيقة الإخلاص: استواء الظاهر والباطن، وترك التصنع لأجل الخلق.

وهو سر بين العبد وربه، لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا يعجب به صاحبُهُ فيبطله.

فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كان ظاهره أرجح من باطنه، خَفَّ ميزانه يوم القيامة، ومَن كان باطنه أرجح من ظاهره، ثقل ميزانه يوم القيامة»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في الإخلاص: «العمل الصالح: الذي لا تريد أن يَحمدك عليه أحد إلا الله»(٢).

وعن زبيد اليامي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «مَنْ كانت سريرته أفضل من علانيته، فذلك الفضل، ومن كانت سريرته مثل علانيته، فذلك النَّصَف، ومن كانت سريرته دون علانيته، فذلك الجور»(٣).

وعن معقل بن عبيد الله الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كانت العلماء إذا التقوا، تواصوا بهذه الكلمات، وإذا غابوا، كتب بها بعضهم إلى بعض: إنه مَنْ أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومَنْ أصلح ما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن اهتم بأمر آخرته، كفاه الله أمر دنياه»(٤).

---

(١) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٣).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٥).
(٣) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٤).
(٤) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٥).

وعن بلال بن سعدٍ قال: «لا تكن وليًّا لله في العلانية، وعدوه في السريرة»(١).

وعنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لا تكن ذا وجهين، وذا لسانين، تظهر للناس ليحمدوك، وقلبك فاجر»(٢).

فإذا قيل: لِمَ الإخلاص؟

قيل: لأن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، فهل يَليق أن يتوجه أحد إلى غير الله بعد ذلك بعبادة أو طلب أو سؤال؟

إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو غايتك، وهو منتهى أملك أيها الإنسان، أحق مَنْ ذُكِرَ سبحانه جل في علاه، وأرأفُ مَنْ مَلَك، وهو أجود مَنْ سُئل، وأعظمُ مَن استنصر، سبحانه هو الملك بلا شريك، والفرد بلا نديد، والصمد سبحانه لا ولدَ له، والعظيم فلا شبيه له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل شيء زائل إلا ملكه.

الإخلاص: لأن الله تعالى هو المستحق وحده لأَنْ يُعْبد جل في عُلاه.

والإخلاص: لأن الله تعالى هو الغني، فالكل مفتقر إليه، وهو القوي فالكل محتاج إليه، وأعظمُ الناس ملكًا واقتدارًا في الدنيا يَطلب رحمته وولايته، قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

---

(١) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٦).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٨).

أيها المسلم، إنك إنْ صرفت عبادتك لغير الله، فقد استبدلت الخبيث بالطيب، وتقربت إلى الفقير العاجز، وأعرضتَ عن الغني الملك القادر، ومَنْ فعل هذا، كان حقيقًا بخيبة أمله، ونقيض قصده، كما قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرجل لَيعمل العمل الحسن في أعين الناس، أو العمل لا يريد به وجه الله، فيقع له المقتُ والعيبُ عند الناس حتى يكون عيبًا، وإنه لَيعمل العمل أو الأمر يكرهه الناس يريد به وجه الله، فيقع له المِقَة والحسن عند الناس»[1].

الإخلاص: لأن السعادة في الإخلاص والشقاء في ضده، ولقد ضرب الله تعالى مثلًا لرجل فيه شركاء متشاكسون، هذا يأمره، وذاك ينهاه، هذا يطالبه، وذاك يمنعه، وضرب المثل برجل آخر سالم في توجهه لسيد واحد، هل يستوي الذي يأمره أسياد مُتعددون مع الذي لا يأتمر إلا بأمر سيد واحد في وقت واحد، ويقوم بعمل واحد؟ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩].

إن الفطرة تشقى إذا اتخذ الإنسان آلهةً من دون الله، أو عبد الإنسان آلهةً مع الله؛ إذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

هذا الشقاءُ لازم لكل مَن اتخذ مع الله شريكًا في محبته وقصده؛ سواء كان هذا الشريك آدميًّا أو غير آدمي، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ**

---

(١) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (١١).

فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[١].

وقوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ**»، يعني: إن استعبده الدينارُ والدرهمُ، وصار عمله كله في طلبهما، فهو كالعابد لهما[٢].

«**تَعِسَ**»، قيل: معناه هلك، وقيل: التعس أن يخر على وجهه، و«**انْتَكَس**»، قيل: معناه أن يُعَاوده المرض والشر كلما برأ منه، وعلى تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط[٣].

ثمرات الإخلاص:

للإخلاص ثمراته التي تُشوقك، وتدعوك إليه:

* **أَوَّلُ ثمراته وأهمُّها وأَعْلَاها: دخول الجنة، والنجاة من النار**، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠- ٤٣].

وفرع دخول الجنَّة: أن يقبل الله ﷻ عملك، فإذا قبل العمل حصل الثواب، والله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وابتغي به وجهه، وقد قيل: حسنة مُتقبلة خير من أمثال الجبال من الصالحات التي لا يقبلها الله! قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/ ٨٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٢٥٤).

عن الفضيل بن عِياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقْبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، لم يُقْبل حتى يكون خالصًا، والخالصُ إذا كان لله، والصوابُ إذا كان على السنة»[(١)].

فأعظم ثمرات الإخلاص: أنه سبب قبول الأعمال، فعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كونوا لقبول العمل أشد همًّا منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[(٢)].

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لأَنْ أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[(٣)].

* **ومن عظيم ثمرات الإخلاص**: الفوز بشفاعة نبينا محمد ﷺ، فهو الذي قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»[(٤)].

* **ومن ثمرات الإخلاص**: نقاءُ القلب من الأحقاد والغل، والنبي ﷺ نبه إلى ذلك، ففي الحديث: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[(٥)].

---

(١) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٢).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (١٠).
(٣) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٢٠).
(٤) أخرجه البخاري (٩٩).
(٥) أخرجه أحمد (١٣٣٥٠).

* **والإخلاص كذلك سببٌ لمضاعفة الأجر**، وسبب لتكفير الوزر، قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رُبَّ عمل صغير تُكثره النية، ورُبَّ عمل كثير تُصغره النية»[١].

والمخلص محبوب عند الله، مقبول عند الناس، ومَنْ سمع الناس بعمله، سمع الله به خَلْقه، وصغره وحقره.

عن محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إذا أقبل العبدُ إلى الله، أقبلَ الله بقلوب العباد إليه»[٢].

وهذا الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «فمَن خلصت نيتُهُ في الحق ولو على نفسه، كَفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّن بما ليس فيه، شانه الله»[٣].

علامات المخلصين:

للمخلصين علامات بها يُعْرفون، وتظهر عليهم:

أوَّلها: كتمان الصالحات:

وفي الحديث: «**إن اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ**»[٤].

وكان السلفُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته، ولا غيرها؛ ولهذا كانوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتسابقون في فعل الصالحات، ويتسابقون في إخفائها.

فقد صام داود بن أبي هند أربعين سنةً، لا يعلم به أحد[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ٤٠٠).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (١٠).
(٣) السنن الكبرى، للبيهقي (٢٠٣٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).
(٥) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣/ ٩٣).

ويقول محمَّد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد أدركتُ رجالًا كان الرجل يكون رأسه ورأس امرأته على وساد واحد، قد بل ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، والله لقد أدركتُ رجالًا كان أحدهم يقوم في الصف، فتسيل دموعه على خده لا يشعر الذي إلى جنبه»(١).

وعن أبي التَّيَّاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إنْ كان الرجل يتعبد عشرين سنةً، وما يعلم به جاره»(٢).

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إنْ كان الرجل ليجتمع إليه القوم، أو يجتمعون يتذاكرون، فتجيء الرجل عَبْرته فيردها، ثم تجيء فيردها، ثم تجيء فيردها، فإذا خشي أن يفلت قام!»(٣).

وعن حمَّاد بن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «بكى أيوب مرةً، فأخذنا منه، فقال: إن هذه الزكْمة ربما عرضت، وبكى مرةً أخرى، فاستبينَّا بُكَاه، فقال: إن الشيخ إذا كبر مجَّ»(٤).

وعن الحسن قال: «إن كان الرجل ليكون عنده الزوار، فيصلي الصلاة الطويلة أو الكثيرة من الليل ما يعلم بها زُواره»(٥).

وعنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إنْ كان الرجل لَتكون له الساعة يخلو فيها فيصلي، فيوصي أهله، فيقول: إن جاء أحد يطلبني، فقولوا: هو في حاجة له»(٦).

---

(١) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٣٦).

(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٣٧).

(٣) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٤٠).

(٤) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٤١).

(٥) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٤٥).

(٦) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا (٤٦).

وعن الزبير بن العوام: «أيكم استطاع أن تكون له خَبيئة- أي: من عمل صالح- فليفعل»(١).

ثانيها: العناية بإصلاح البواطن:

من هذه العلامات: صلاح السَّرائر، والعناية بها، وإصلاحها: أعظم ما يشتغل الإنسان بإصلاح العلانية؛ إذ أفضلُ الطاعات مراقبةُ الحق على دوام الأوقات، وصفة هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤]، قال الحسن: «هذا ليلهم إذا خلوا بينهم وبين ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»(٢).

ثالثها: الخشية والخوف من ردِّ العمل:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهم كما قال الحسن: «يعملون ما عملوا من أعمال البر، وهم يخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم»(٣).

وفي الحديث عن أُم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «قلت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر؟ قال: **لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ -أَوْ: يَا بِنْتَ الصديقِ- وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيُصَلِّي، وَهُوَ يَخَافُ أَلَّا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ**»(٤).

فالأَمرُ كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإن المنافق جمع إساءةً وأمنًا»(٥).

---

(١) الزهد، لأحمد (٧٧٨).

(٢) الزهد، لأحمد (١٦٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٣٦٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٦٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٦٨).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عن بعض من أدركه من أهل الآخرة-: «لقد أدركنا أقوامًا كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تُعذبوا عليها»(١).

ولذلك كانوا لا ينتظرون ثناء الناس، ولا يقبلون هذا الثناء، حالُهُم كحال من حكى الله عنهم في كتابه، فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩]، ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، هكذا كانوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

لَا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنا فِي ذِكْرِهم ... لَيْسَ الصحيحُ إِذَا مَشى كالمُقْعدِ

اللهم اجعلنا مخلصين، عليك متوكلين، لرضالك طالبين، برحمتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

(١) المجالسة، لأبي بكر الدينوري (٦١٦).

البصيرة الثالثة

في حقيقة العبادة والعبودية

وعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ　　مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

ومَدارُها بالأَمْرِ أَمرِ رَسولِهِ　　لا بالهَوى والنَّفْسِ والشيطانِ

لا يغيب عند الحديث عن حقيقة العبادة والعبودية أن إفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له هو تحقيق الدين، وتحرير توحيد رب العالمين، ولذا فإن تحقيق الدين لا يتأتى إلا بتحقيق العبادة، وتحرير مفهومها؛ إذ هي الدين أوله وآخره، باطنه وظاهره، سره وجوهره.

ومن جهة أخرى، فإن العبادة هي غاية من غايات الخَلق والإيجاد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ومن وراء التكليف بالعبودية غاية أخرى يُحصلها العبد، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

وبتحقق العبد بتقوى الله تعالى، تناله سعادة الدارين، وينجو في الدنيا والآخرة، فَغَدتْ وَعادَتْ مصالح العبودية إلى العبد نفسه في عاجل أمره وآجله.

ومن هنا فقد تَعين على المسلم أن يعرف حقيقة العبودية؛ ليتحقق بها، وليكون من خاصة أهلها.

معنى العبادة:

و«العبادةُ هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمَرْضية له، التي خلق الخَلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]»[(١)].

والله تعالى إنما خلق الخَلق لعبادته الجامعة؛ لكمال محبته مع الخضوع له، والانقياد لأمره.

أصل العبادة وحقيقتها:

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة التامة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يُحَب معه سواه، وإنما يُحب لأجله وفيه، كما يُحَب أنبياؤه ورسله وملائكته وأولياؤه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبةً معه، كمحبة مَنْ يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه، كل ذلك مع غاية تعظيم الله وتقديسه والخضوع

---

(١) العبودية، لابن تيمية (ص٤٤).

له، فالعبودية نهاية المحبة والتعظيم.

وفي العبودية لا تنفك المحبة عن التعظيم؛ فَإن مَنْ خضع لإنسان مع بُغْض له، لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له، لم يكن عابدًا له، كما قد يحب ولده أو صديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون اللهُ أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون اللهُ عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أُحب لغير الله، فمحبته فاسدة، وكل ما عُظم بغير أمر الله، كان تعظيمه باطلًا.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خُلق الخَلق لأجلها، فإنها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يَقبل لصاحبه عملًا»(١).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع، والذل للمحبوب، فمَن أحب محبوبًا وخضع له، فقد تعبد قلبه له، بل التعبد آخر مراتب الحب»(٢).

ويواصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه عن هذا الأصل الأصيل، فيقول: «وحقيقة التعبد: الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: طريق مُعبد، أي: مُذلل، قد ذللته الأقدام، فالعبد هو الذي ذلـله الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرفَ أحوال العبد ومقاماته في العبودية، فلا منزل له أشرف منها»(٣).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له،

---

(١) الفوائد، لابن القيم (ص١٨٣).

(٢) الجواب الكافي، لابن القيم (ص١٨٣).

(٣) الجواب الكافي، لابن القيم (ص١٨٧).

والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى.

وقد ثبت من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أكونَ أحبَّ إِلَيهِ مِن وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، والنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١).

وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، واللهِ لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**، قال: والذي بعثك بالحق، لَأنت أحب إلي من نفسي، قال: **الآنَ يَا عُمَرُ**»(٢)، فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ، ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان، وولده، ووالده، والناس أجمعين، فما الظن بمحبة مرسِله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه؟

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه بها، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهُه الحق ومعبودُه أحب إليه من ذلك كله، والشيء قد يُحب من وجه دون وجه، وقد يُحَب بغيره، وليس شيء يُحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية والإلهية إلا له، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]»(٣).

تحقيق محبة الله وتعظيمه:

وإذا كانت المحبة والتعظيم لله هي حقيقة العبودية وسرها، فلا تنشأ تلك المحبة والتعظيم، ولا تحصل توابعها إلا بعد معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٢٣٢).
(٣) الجواب الكافي، لابن القيم (ص٢٠٠).

وأفعاله وكمالاته، فيُثْمر ذلك كله الطاعة الطوعية، والعبادة الاختيارية، وكل مَن كان بالله أعرف، كان له أعبد وأخوف.

وإذا تَحققت تلك المحبة والتعظيم في قلب العبد، كان ثمرة ذلك اتباع أمر الله، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي، تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ولذا كانت علامةُ تحقيق العبادة انقيادَ النفس لأحكام الله تعالى، وصورة ذلك وقالبه الإسلام، ومعناه وروحه الإيمان، ونوره الإحسانُ، كما قال الإمام الألوسي: «حقيقة العبد لله حقًّا: أنه المحب لربه غاية الحب، وأنه المُعظم لشأنه غاية التعظيم، المتذلل لجنابه بكل أركانه، الخاضع المنقاد المستسلم لأوامره وأحكامه.

فتوحيد العبادة الذي هو إفراد الله تعالى بغاية الحب ونهاية التعظيم والذل: هو الذي ينشئ كل الطاعات القلبية والبدنية، وينشئ كل طاعة ظاهرة وباطنة، فليس في هذا الوجود إلا رب معبود، وإله مقصود، وعبد مربوب؛ يأخذ عن الله، ويتوجه إلى الله، ويجرد عمله وقلبه من كل أحد سوى الله، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر:١٤]»[1].

صور العبادة وأنواعها:

العبادة أداء للفرض، وعمارة للأرض؛ أداء للفرض الذي فرضه الله من شعائر التعبد والتنسك، وعمارة للأرض التي أمر الله تعالى بعمارتها بما يرضيه،

(١) تفسير الألوسي (١/ ٩٢).

يحتسب العبدُ في عمارة هذه الأرض النومة ينامها كما يحتسب القومة يقومها، يبتغي في ذلك الأجر بكل حركة وسكنة.

يستوي في ذلك **عبادات الظاهر**: كالصلاة، والحج، **وعبادات الباطن**: كالإخلاص، والمحبة، وما نفعُهُ متعد؛ كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما نفعُهُ قاصر؛ كالذكر والصيام ونحو ذلك، وما كان متعينًا على كل مكلف؛ كالمكتوبات، أو كفائيا على مجموع الأمة؛ كالجهاد، وما كان عبادةً بوضع الشرع؛ كالزكاة، وما كان بالنية والتبع؛ كالصدقة التي تحصل للإنسان إذا أنفق على أهله(١)، أو أتى زوجَه في الحلال(٢).

إذًا، تحقيق العبادة: أن يعي العبد ويعلم أن العبادة والعبودية عينان لا تنظران إلا إلى عظمة الله ومجده وحكمته في قَدَره وشرعه، وأنهما أذنان لا تسمعان إلا إلى آيات الله في خلقه وكونه، وأوامر الله تعالى في أمره ووحيِه، وهي لسان ناطق بحمد الله وذكره، لاهج بمنه وفضله، والعبادة والعبودية- قبل ذلك وبعده- قلب نابض بمحبة الله وخوفه، متذلل لكبريائه وعلوه جل في عُلاه.

فالعبادة هي الحياة متوجهًا بها إلى الله، وهي تحقيق لذكر الله على كل حال، وفي كل حين، وهي الدينونة الكاملة لله وحده في كل شيء من شؤون الدنيا والآخرة، فمن كان على مراد الله بما يريده الله، فقد حقق العبودية لله، إياك أريد بما تريد، إياك نعبد وإياك نستعين.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»، أخرجه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).

(٢) وفي الحديث: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»، أخرجه مسلم (١٠٠٦).

إخلاص العبادة لله وحده:

العبادة في حقيقتها توجه إلى الله وحده بالانقياد لأمره، والخضوع لشرعه، فمَن أطاع غير الله، وانقاد له من دون الله، فقد خرج عن عبادة الله، وعبَد من سواه.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»(١).

ولا يَسلم من هذا إلا مَن سلم قلبه لله تعالى، «وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قَدْ سلم من كل شهوة تخالف أَمْرَ الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسَلِمَ من عبودية ما سواه، وسَلِمَ من تحكيم غير رسوله»(٢)، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى؛ إرادةً ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عملُهُ لله.

وسائل تحقيق العبودية:

وحتى تتحقق هذه العبادة لا بد أن يكون البدن عاملًا بطاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ١٠).

منقادًا لما أمر الله تعالى به، وذلك يتحقق بوسائل، منها:

أن يستعين العبد بالله، فأول ما يعين على تحقيق العبودية هو الله، فإذا استعنت بالله أعانك على عبادته، فالعبادة والعبودية لا تتحقق إلا باستعانة بالله على عبادته؛ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والعبودية محفوفة بإعانتين؛ قَبْلها: بالتزامها والقيام بها، وبعدها: بالثبات عليها والمداومة.

قال بعض السلف: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

فاللهم أعنَّا على ذِكْرك وشكرك وحسن عبادتك، وأورثنا بعبادتنا لك افتقارًا إليك وانكسارًا؛ انكسارًا ترحم به ضعفنا، وتَجبر به كسرنا، وتُحْسن به خلاصنا، وارزقنا اللهم صبرًا واصطبارًا ومصابرةً على العبادة حتى ترضى عنا، وحتى نشهد بقلوبنا جنتك في هذه الدنيا.

اللهم اجعلنا لك ذكَّارين، لك شكَّارين، لك مِطْواعين، إليك أوابين توابين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

البصيرة الرابعة

في تعظيم الفرائض

من بصائر الإيمان: تعظيم فرائض الرحمن؛ ذلك أن فرائض الله هي أحب ما تقرب به العبد إلى ربه، والأمرُ بالفرائض جازم، ويستحق العبد بتَركها الإثم والعقوبة بخلاف النفل، فهو وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب بفعله إلا أنه لا يقع العقاب بتركه، فلذا كانت الفرائض ألزم، والاهتمام بفعلها أَوْكد، والاحتفاء بها، ورعاية الإحسان في أدائها أوجب.

وجوه تعظيم الفرائض، والاحتفاء بها:

١- الفرائض أحب الأعمال إلى الله:

إن تعظيمَ الفرائض هو أحب ما تقرب به العبد إلى ربه، وهو الطريق إلى تحصيل ولاية الله تعالى، كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ**

الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

وهذا الحديث هو أشرف حديث ذُكِرَ في ولاية الله، وما يعنينا في هذا المقام هو قوله تعالى: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»، فالفرائض هي أفضل الأعمال، وهي أحبها لدى الله، فمَن أدى ما افترض الله تعالى عليه من الطاعات الواجبة، فقد سلك طريق الولاية، وسلك طريق المحبة.

وقد استشكل بأن ظاهر الحديث يدل على أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمته التقرب بالنوافل، وهو معارَض بما تقدم من أن الفرائض أحب العبادات المُتقرب بها إلى الله، فكيف لا تنتج المحبة؟!

والجواب كما قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض، مشتملةً عليها، ومكملةً لها»[٢]، وفي ذِكْرِ النافلة بعد الفريضة إشارة إلى أنه لا تقبل النافلة، ولا يزكو ثوابها عند الله لمَن ضيع الفريضة[٣].

أما تخصيص النافلة بالمحبة، فلا يعني أن محبة الله لا تطلب بالفرائض، بل أن محبة الله إنما ينالها من يؤدي الفرائض ويزيد عليها بأداء النوافل، لا يفعل ذلك إلا محبةً لله، ومبالغةً في طلب رضوانه، كما يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه لما أدى المؤمن جميع الواجبات، ثم زاد بالتنفل، وقعت المحبة لقصد التقرب؛ لأن مؤدي الفرض ربما فعله خوفًا من العقاب، والمتقرب بالنفل لا يفعله إلا إيثارًا للخدمة والقرب، فيثمر له ذلك مقصوده»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٤٣).
(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة (٧/ ٣٠٣).
(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (٣/ ٥٢٦).

وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به: امتثال الأمر، واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية، وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل.

٢- الإحسان في الفرائض خير من الاستكثار من النوافل:

في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**، قال: ثم أي؟ قال: **ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**، قال: ثم أي؟ قال: **الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

وفي رواية لمسلم قال: قلت: يا نبي الله، أي الأعمال أقرب إلى الجنة؟ قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا**»(٢).

وهذه الألفاظ متقاربة المعنى؛ لأن ما كان من الأعمال أحب إلى الله فهو أفضل الأعمال، وهو أقرب إلى الجنة من غيره؛ فإن ما كان أحب إلى الله فعاملُه أقرب إلى الله وإلى جنة الله من غيره.

وقد دل حديث ابن مسعود على أن أفضل الأعمال، وأقربها إلى الله، وأحبها إليه: الصلاة على مواقيتها المؤقتة لها، والمراد هنا: أداء الصلاة لأول وقتها، كما في حديث أُم فروة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: «أي الأعمال أفضل؟ قال: **الصَّلَاةُ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا**»(٣).

فكان في هذه الأحاديث إشارة إلى أن العناية بالفرائض، وحسن الأداء لها،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٧٠).

والاحتفاء والاحتفال بها، أفضل من الاستكثار من النوافل مع عدم الإحسان في الفرائض.

وقد فَقُه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا الفقه، وشاع بينهم، حتى قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أفضلُ الأعمال: أداءُ ما فرض الله»(١).

وقال: «الذي نقيم به وجوهنا عند الله: أداءُ ما افترض علينا، وتحريمُ ما حرم علينا، وحسن النية فيما عند الله»(٢).

وعن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أخذ التابعون، فكانوا يُقدمون الفرائض، ولا يَعدلون بها شيئًا، فعن إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سألتُ فضيل بن عياض، فقلت: أي الأعمال أفضل؟ قال: ما لا بد منه، قلت: أداء الفرائض واجتناب المحارم؟ قال: نعم، أحسنت يا بخاري، وهو الورع»(٣).

٣- تعظيم الفرائض واجتناب المحرمات سبب دخول الجنات:

الفرائض على نوعين: أداء واجبات، واجتناب مُحرَّمات، وكل منهما داخل في أفضل الأعمال، كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في خطبته: «أفضلُ العبادة: أداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارم»(٤).

وفي حديث أبي ثعلبة الخُشَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»(٥).

---

(١) فتح الباري، لابن رجب (٤/ ٢٠٩).
(٢) الورع، لابن أبي الدنيا (١٧٥).
(٣) الورع، لابن أبي الدنيا (ص٥٢).
(٤) المصنف، لابن أبي شيبة (٣٦٢٢٨).
(٥) الكبير، للطبراني (٥٨٩)، والدارقطني (٤٣٩٦)، والحاكم (٧١١٤).

فَمَنْ عمل بهذا الحديث، حاز الثواب كله، واستولى على الفضل بأسره؛ لأن من أدى الفرائض، واجتنب المحارم، ووقف عند الحدود، وترك الغُلو والتنطعَ بالبحث عما سكت الله عنه، فقد استوفى أقسام الفضل، وصار بذلك من أصحاب الجنة.

يشهد لهذا حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أتى النبيَّ ﷺ النعمانُ بن قوقل، فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إذا صليتُ المكتوبة، وحرمتُ الحرام، وأحللتُ الحلال، أأدخل الجنة؟ فقال النبي ﷺ: **نَعَمْ**»(١)، وفي رواية قال النعمان: والله، لا أَزيد على ذلك شيئًا(٢).

وهذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام؛ وذلك لأن الأفعالَ إما قلبية، وإما بدنية، وكل منهما إما مأذون فيه وهو الحلال، أو ممنوع منه وهو الحرام، فإذا أحل العبد الحلال، وحرم الحرام، فقد أتى بجميع وظائف الدين، ودخل الجنة آمنًا برحمة أرحم الراحمين.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دُلني على عمل إذا عملتُهُ دخلتُ الجنة، قال: **تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**، قال: والذي نفسي بيده، لا أَزيد على هذا شيئًا أبدًا، ولا أنقص منه، فلما ولى قال النبي ﷺ: **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).

وروي نحو ذلك عن طلحة بن عُبيد الله، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال للأعرابي: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»، أَوْ «**دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**»(١).

تَنْبيهٌ مهمٌّ:

ثواب الله تعالى ودخول جنته إنما يُنَال بالإيمان والعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، ولكن ارتباط دخول الجنة بالعمل ليس ارتباط استحقاق ومعاوضة، بل الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وليست ثمنًا لها، فدخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**»(٢).

فالعمل سبب لدخول الجنة، والأصل أن تترتب عليه نتيجته، ولكن قد لا تترتب عليه هذه النتيجة؛ لوجود المانع من قبول العمل، والقبولُ محضُ فضل الله تعالى، كما أن التوفيق للصالحات محض فضله ورحمته سبحانه، فمن أتى بالسبب فهو طامع في رحمة الله، وقبول عمله، أما مَنْ لم يأت بالسبب، فكيف يطمع في القبول؟

المحافظة على الفرائض تفتح باب التنافس في النوافل:

أصل دخول الجنة إنما يكون بالعمل الواجب، أما التنافس في رتبها ودرجاتها العلية، فباستكمال السنن والمستحبات، ومن سماحة هذا الدين أنه يربط دخول

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩١)، ومسلم (١١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الجنة بالحد الأدنى المقبول من الإيمان والأعمال دون الحد الأعلى، ولكن لا ينبغي أن يترك الإنسان الرغبة في الدرجات العلى، ولا أن يتقاعس عن منازل المقربين، ومسالك الصالحين.

فعلى المسلم أن يطلب أعلى الدرجات في منازل الجنات، يطلب ذلك بعمله واجتهاده وسعيه للتقرب إلى الله بأنواع الصالحات، ويطلبه كذلك بدعاء الله وسؤاله، دل على ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا**.

قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟ **قال: إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١).

ولذلك، فإن الصحابي الذي قال: «لا أزيد على هذا، ولا أنقص»- وهو النعمان بن قوقل رضي الله عنه وأرضاه- لم يكن دَنِيَّ الهمة متقاصرًا عن الرتب العلية، بل ضرب مثالًا رائعًا في البذل والجد والتضحية حتى جاد لله بنفسه، فقد شهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدرًا، وجاهد فيها، ثم شهد أُحُدًا، واصطفاه الله فيها شهيدًا، وقد روي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه وقف يوم أُحُد، فقال: «أقسمتُ عليك يا رب ألا تغيب الشمس حتى أطأَ بعَرجتي في خضر الجنة، فقال رسول الله ﷺ: **رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِيهَا، وَمَا بِهِ مِنْ عَرَجٍ**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٦٣٦٢).

ومع التنبيه على فضيلة النوافل بعد الفرائض، فلا يغيب أن مِنْ فقه الدعوة إلى الله: إننا نبدأ بالأسس والأصول والأركان، وألا يُشغَلَ الناسُ بالنوافل والفضائل وهم على حال من التقصير في الفرائض والواجبات، فالاشتغالُ بالمستحبات أولى منه العناية بالواجبات، فمَنْ أراد الجنة فعليه بالفرائض فليلزمها، وبالمحارم فليجتنبها.

مراتب الفرائض:

ثم الفرائض تنقسم إلى قسمين:

١- فرائض على كل أحد، وهي الفرائض العينية.

٢- وفرائض على مجموع الأمة، وهي الفرائض الكفائية.

فعلى المسلم أن يكون حريصًا على هذه الفرائض العينية، وأن يشارك وأن يضرب بسهم في هذه الفرائض الكفائية.

ومن المعلوم أن أعظم الفرائض وأولاها، وإن أحب الأعمال إلى الله وأزكاها: إيمان لا شك فيه، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»(١).

وعن عبد الله بن حبشي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: **إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَجِهَادٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ**.

قيل: فأي الصلاة أفضل؟ قال: **طُولُ القُنُوتِ**.

قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: **جَهْدُ المُقِلِّ**.

قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: **مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ**.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: **مَنْ جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَالِهِ، وَنَفْسِهِ.**

قيل: فأي القتل أشرف؟ قال: **مَنْ أُهْرِيقَ دَمُهُ، وَعُقِرَ جَوَادُهُ**»[١].

وهذا الإيمان هو ما اجتمعت فيه عبادات القلب، واللسان، والجوارح، وعباداتُ القلب كثيرة، منها: الإخلاص، والانقياد، والخضوع، والخشوع، والتأله، والتوكل، والرجاء، والخوف من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والإيمان بأنه تعالى وحده المستحق لأَنْ يُعبد، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

ثم إن أعظم الأعمال بعد الإيمان: الصلاة، فإنها خير موضوع، كما قال نبينا ﷺ[٢]، وهي أعظم ما يُقرب العبد إلى الرب، كما قال سبحانه: ﴿وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩]، وفي الحديث: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[٣].

ثم بعد الصلاة في الفضل: الزكاة، وقد نبه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى أهمية الزكاة، وحث عليها، وبين عقوبة مَن يتركها، وذلك في القرآن والسنة.

أما في القرآن: فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون:٤].

أما في السُّنة: فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ**- يعني: بِشِدْقَيْهِ- **ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ**. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٠١)، والنسائي (٢٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢).

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»(١).

ثم يأتي الصيام الذي هو رابع أركان الإسلام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ثم الحج وهو خامس هذه الأركان لمن استطاع إليه سبيلًا، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفي الحديث: «**مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(٢)، وفي الحديث الآخر: «**وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ**»(٣).

فهَذه الخمسة هي أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وثمة واجبات أخرى وُصفت بأنها من أفضل الأعمال؛ كالجهاد في سبيل الله تعالى، وبر الوالدين، وغيرهما، وكفى بالجهاد فضيلةً قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

ثم إن التوبة واجب وفريضة كل وقت، وهي فريضة العُمر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

فعلى المسلم أن يصرف جهده وعنايته إلى هذه الواجبات، وأن يُدْركها ويُحققها ويلتزمها؛ حتى يلقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها، لعله أن يكون في القيامة من الناجين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

اللهم إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك أن تُطاع فيه: الإيمان بك والتوحيد لك، ولم نعصك في أبغض الأشياء أن تُعصى فيه: الكفر والجحود لك.

اللهم فاغفر لنا ما بينهما، اللهم كما مننت علينا بالإسلام فامنن علينا بطاعتك فرضًا ونفلًا، وبترك معاصيك أبدًا.

اللهم إنا نحب طاعتك وإن قصرنا فيها، ونكره معصيتك وإن ركبناها، فتفضل علينا بالجنة وإن لم نستحقها، وخلصنا من النار وإن استوجبناها!

يا أكرم مسئول، ويا أرجى مأمول، برحمتك يا أرحم الراحمين.

البصيرة الخامسة

في محبة الرسول ﷺ

إن أعظم محبوب ومراد لذاته هو الله جل في علاه، فليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يُحَب لذاته من كل وجه إلا الله، وكل ما يُحب سواه فمحبته تبعًا لمحبته، فإن الرسول ﷺ إنما يُحَب لأجل الله، وإنما يُطَاع لأجل الله، وإنما يُتبع لأجل الله، ومحبةُ النبي ﷺ واتباعُه إنما هي دليل على محبة الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١].

وجوب محبة النبي ﷺ:

ومحبة النبي ﷺ من أعظم الواجبات، قال الله تعالى: ﴿**ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب:٦]، وهو يقول عن نفسه ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكُم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ والده وولده والنَّاسِ أجمعين**»(١).

ولا تكون هذه المحبة على وجهها الشرعي حتى لا يكون للعبد حكم- يستبد به دون اتباع رسوله- حتى على نفسه التي بين جنبيه، بل الحكم في ذلك

(١) أخرجه البخاري (١٥) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

للرسول ﷺ يحكم فيه كما يحكم السيد في عبده.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، وكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالةً وحجةً على لزوم محبة النبي ﷺ، وعلى وجوب فرضها، وعلى عِظَم خطرها.

فإن قال قائل: لماذا يُحَبُّ رسول الله ﷺ؟

فالجواب: يُحَب رسول الله ﷺ لتربعه على عرش الجمال والكمال، خَلْقًا وخُلُقًا ﷺ، له هيبة في وجهه وفِعاله، فلو شاهدَتْه الأُسْدُ كانت تهابه، وكان له مع ذلك جمال وحسن وبهاء في خَلقه وخُلُقه يأخذ بالألباب، حتى وصفه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «مَن رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه»(١).

الأول من أسباب حُبِّه ﷺ: جمالُ خَلْقه:

ثبت في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا سأله فقال: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: «بل مثل القمر ﷺ»(٢)، أي: في الحسن والملاحة والتدوير، ويحتمل أن يكون أراد السائل أنه مثل السيف في اللمعان والصقال، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بل فوق ذلك، وعَدَل إلى القمر؛ لجمعِهِ الصفتين من التدوير واللمعان(٣).

وفي حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن رجلًا قال له: أكان رسول الله ﷺ وجهه مثل السيف؟ قال جابر: لا، مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا»(٤)، أي:

---

(١) المصنف، لابن أبي شيبة (٣١٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٢).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٥٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٤٤).

كان مثل الشمس في نهاية الإشراق، والقمر في الحسن والملاحة، وحين جرى التعارف في تمثيل الشمس بالإشراق، والقمر في الحسن والملاحة دون الاستدارة أتى بقوله: «وكان مستديرًا»؛ بيانًا للمراد فيهما.

وفي رواية عنه: «رأيته في ليلة إضحيان[1]، وعليه حُلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فَلَهو كان أحسن في عيني من القمر»[2].

وثبت من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، ولا مسستُ ديباجةً، ولا حريرةً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مِسكةً ولا عنبرةً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ»[3]، هذا خَلْقه صلوات الله وسلامه عليه، فما أجمله، وما أكمله!

الثاني من أسباب حُبِّه ﷺ: كمال خُلُقه:

أما خُلُقه، فقد تحدث عنه القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

ويتبدى كَمال خُلق الإنسان مع خادمه وزوجه.

يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، لا- والله- ما سبَّني سُبَّةً قط، ولا قال لي: أُف قط، ولا قال لي لشيء فعلتُهُ: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه!»[4].

وفي رواية عنه قال: «خَدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُف، ولا:

(١) أي: مضيئة لا غيم فيها.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨١١)، والدارمي (٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٣)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٠٣٤).

لِمَ صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ!»[(١)].

وفي رواية عنه قال: «خَدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أُفٍّ قط، ولا قال لي لشيء: لِمَ فعلتَ كذا؟ وهلا فعلتَ كذا!»[(٢)].

وهذه زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: كان خُلقه القرآن، فعن سعد بن هشام بن عامر، قال: «أتيت عائشة، فقلت: يا أُم المؤمنين، أخبريني بخُلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خُلقه القرآن، أمَا تقرأ القرآن؟! قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]»[(٣)].

وفي رواية عنها قالت: «ألست تقرأ القرآن؟! قلت: بلى، قالت: فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[(٤)].

وقد قال الله تعالى في حقه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. يقول: حريص على هدى ضُلَّالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾، أي: رفيق ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

وقال الحسين بن الفضل رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١).

(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٢).

وقال عبد العزيز بن يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَظْم الآية: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رؤوف رحيم، عزيز عليه ما عنتم، لا يهمه إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سُنته، فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة»(١).

الثالث من أسباب حُبِّه ﷺ: عظيم فضله على المؤمنين:

ويُحَب- أيضًا- لأنه أفضل الخَلق على الإطلاق- صلوات الله وسلامه عليه، ولأنه أعظم نِعَمِ الله على الخَلق كافة، فهو- صلوات الله وسلامه عليه- طريق الهداية، وسببها، ومبعوثها، صلوات الله وسلامه عليه.

قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:٥٢].

والرسالة رُوح العالم ونوره وحياته، وقد جاء بها نبينا ﷺ، فكل خير في الوجود- عام أو خاص- فَمَنشؤه من جهة الرسول ﷺ(٢).

فهو مِنة الله العظمى على المؤمنين، قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَمِــنْ عَظِــيمِ مِنَّــةِ السَّــلَامِ ... ولُطْفِـــهِ بسَـــائِرِ الأَنَـــامِ
أنْ أَرْشَـدَ الخَلْـقَ إلـى الوُصـولِ ... مُبَيِّنَـــا لِلْحَـــقِّ بِالرَّسُـــولِ

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٠٢).

(٢) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٩/ ٩٣).

وهو صاحب القَدر العظيم صلوات الله وسلامه عليه، قال له ربه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

ولمحبَّته ﷺ علامات وأمارات:

أوَّلها: تمنِّي رؤيته ﷺ، ولو منامًا، مع الاشتياق إليه، وتَوَقان النفس إليه، فالنفس إذا أحبت شيئًا واشتاقت وتاقت، بحثَت عن سُبل الوصول إليه، وتمنت لقاءه إن أمكن، فإن لم يمكن تمنت هذا اللقاء ولو منامًا.

خيالُـــــك في ذِهْنـــــي وذِكـــــرُك في فَمِـــــي
ومَثْـــــواكَ في قَلبِـــــي فـــــأين تَغيـــــبُ؟!

بل لو خُيِّر المحب الصادق بين أن يتنازل عن حظوظه من الدنيا ومتاعها، وبين رؤية وجهه الشريف صلوات الله وسلامه عليه، لاختار رؤية وجه النبي ﷺ ولو منامًا، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**والَّذي نَفسُ محمدٍ في يدِهِ، ليأتينَّ على أحدِكُم يومٌ ولا يراني، ثم لأن يراني أحبُّ إليهِ من أهلِهِ ومالِهِ معهم**»[١].

وهذا في حق أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فرؤيةُ أحدهم للنبي ﷺ أفضلُ لديه وأحظى من أهله وماله، فكيف بمَنْ لم يرَ النبي ﷺ؟! أولئك الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»[٢].

وإذا صدقتِ المحبةُ واستحكمت في القلوب، مَن الله عليها برؤية المحبوب صلوات الله وسلامه عليه، وقد تكرر ذلك لبعض الصحابة حتى قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قل ليلة تأتي علي إلا وأنا أرى فيها خليلي ﷺ»، قال المثنى الراوي

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

عن أنس: وأنس يقول ذلك وتدمع عيناه[١].

ثانيها: البكاء شوقًا إليه، والبكاء عند ذِكْره ﷺ:

والدمعُ يُعْـربُ مـا لا يُعْربُ الكَلِـمُ والدمعُ عَـدْلٌ وبَعـضُ القَـولِ مُتهمُ

وجاء عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صعد المنبر بعد وفاته ﷺ بعام، فقال: «قام رسول الله ﷺ مقامي هذا عامَ الأول..»[٢]، فلما أراد أن يحكي كلام النبي ﷺ بكى، كلما أراد أن يقول، بكى.

ولما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**»، بكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: فَدَيناك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا[٣].

إن عينه لَتسيل خوفًا من الفراق، وإشفاقًا منه قبل حصوله، كما تسيل عند الفراق.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الإثنين، قال: فإن مت من ليلتي، فلا تنتظروا بي الغد؛ فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ»[٤].

وفي رواية قال: «إني لأرجو إلى الليل، فتُوفي حين أمسى، ودُفن من ليلته قبل أن يصبح»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٢٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٥٤)، وابن ماجه (٣٨٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤٥).

(٥) مصنف عبد الرزاق (٦١٧٦).

ثالثها: تفديته ﷺ بالنفس والنفيس قولًا وعملًا:

ففي الحديث أن امرأةً أنصاريةً استقبلت يوم أُحُد أخبار مَن استشهد من المسلمين، فإذا هم يستقبلونها بخبَر طائفة من أهلها، هذا أبوها، وذاك أخوها، وثالث هو زوجها، ورابع هو ابنها، وهي لا تزيد على أن تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فيقولون: أمامك، حتى دُفعت إلى رسول الله ﷺ، فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمتَ من عطب[١]، يعني: من مات أو قُتِل.

وأنصارية أخرى من بني ذبيان قد أُصيب زوجها وأخوها يوم أُحد، فلما نعوا إليها قالت: ما فَعَل رسول الله؟ قالوا: خيرًا يا أُم فلان، فقالت: أرونيه أنظر إليه، فأشاروا إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[٢].

وهذا- أيضًا- حال الرجال، فكلهم فَدَى النبي ﷺ بنفسه قولًا وعملًا يوم أُحد.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما كان يوم أُحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحَجَفة له، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد القد، يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه الجُعبة من النبْل، فيقول: **انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ**، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تُشْرف؛ يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»[٣].

---

(١) الأوسط، للطبراني (٧٤٩٩)، والحلية، لأبي نعيم (٢/ ٧١، ٣٣٢).
(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (٣/ ٣٠٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١).

وعن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «أُصيب بين يدي رسول الله ﷺ يوم أُحد سبعة من الأنصار، كلهم يقول: نحري دون نحرك، ونفسي دون نفسك»(١).

فالنبي ﷺ يُحَب ويُفدى حتى يستغرق الحب كل القلب.

نَسِينا في وِدَادِكَ كُلَّ غَالٍ ... فَأَنْتَ اليومَ أغْلَى ما لَدينَا

نُلامُ على مَحَبَّتِكُم ويَكفِي ... لنَا شَرف نُلامُ وما عَلينَا

رابعها: اتباعه ﷺ في دقيق الأمر وجليله:

قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١].

فهذه علامة فاضحة للمحبة الصادقة من المحبة المُدَّعاة! فالمحب لرسول الله متبع له في الفرض والنفل، والهدي والأدب، وفي كل شأن دقيق أو جليل.

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فاللهم اجمعنا بحبيبنا المصطفى؛ بمحبتنا له، واتباعنا، في الفردوس الأعلى من الجنة يا كريم!

(١) فضائل الصحابة، لأحمد (١٤٤٥).

البصيرة السادسة

في محبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

إن من واجبات الإيمان: محبة صحابة النبي العدنان، إذْ هم معادن التقوى والإحسان، وهم السلف السابق بالإيمان، وهم أهل مرضاة الرحمن، محبتهم طاعة وإيمان، وبغضهم نفاق وطغيان.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أصحاب خير خلق الله، وهم أرضى الخلق عند الله بعد أنبياء الله، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأرسخهم إيمانًا، وأعمقهم علمًا، وأقلهم تكلفًا[1].

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصفهم، حيث قال: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن»[2].

---

(١) الشريعة، للآجري (١١٦١)، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١٨٠٧).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٤٣)، وأحمد (٣٦٠٠).

فمن عقيدة كل مسلم ومسلمة: «نحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»(١).

مراتب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

وأهل السنة يحبون ويوالون أصحاب رسول الله ﷺ كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب.

وهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد سبقوا بالصحبة والنصرة سبقًا بعيدًا، وبتزكية الله ورسوله ﷺ لهم بلغوا شأنًا عظيمًا.

أعلاهم قدرًا، وأكثرهم أجرًا، وأثقلهم ميزانًا: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلى هذا إجماع المؤمنين من الصحابة والتابعين، ثم ذو النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أول مَن آمن بنبينا ﷺ من الغلمان.

ونُثْبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولًا لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تفضيلًا له، وتقديمًا على جميع الأُمة، ثم لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والعشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة، نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح- وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) متن العقيدة الطحاوية، للطحاوي (ص٨١، ٨٢).

أما في الفضل، ففي مقدمة أصحاب نبينا رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ: الخلفاء الأربعة الراشدون، ومن بعدهم باقي العشرة المبشرين، ومن ورائهم السابقون الأولون من المهاجرين الأبرار، ثم من الأنصار الأخيار، ثم أهل بدر؛ أهل الأجر ومغفرة الوزر، ثم أهل أُحد الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح والجهد، ثم أهل بيعة الرضوان الذين حُرموا على النيران، ثم مَن آمن من قبل الفتح، وأنفق وهاجر وجاهد، ثم مَن آمن من بعد الفتح، وأنفق وجاهد، وكلا وعد الله الحسنى.

وجوب محبة الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، والواجب نحوهم:

فرض على كل مسلم أن يحب صحابة رسول الله ﷺ، وأن يترضى عن جميعهم، وأن يبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، وكما هم في الفضل متفاوتون، فَهُم في الحب متفاضلون.

«ومَنْ أحسنَ القولَ في أصحاب رسول الله ﷺ، وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس- فقد برئ من النفاق»[(١)]، وقد تواصى بحبهم والثناء عليهم سلف الأمة الصالحون، حتى قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان السلفُ يُعَلمون أولادَهم حُب أبي بكر وعمرَ، كما يُعلمون السورةَ مِن القرآنِ»[(٢)].

وكذلك يَتعين الاقتداء بهم، والاهتداء بِهَديهم، دون غلو في أقدارهم، فليسوا بمعصومين رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، وبلا تنقص لمنزلتهم، فليسوا كآحاد المؤمنين.

ويجب الكف عما شجر بينهم؛ فإن ذِكر ما شجر بينهم من الخلاف يُفضي إلى الوقيعة في بعضهم، وإلى إيغار الصدور عليهم، وإلى نزول مقامهم ومكانتهم،

(١) من كلام أبي جعفر الطحاوي في العقيدة الطحاوية (ص٨١ - ٨٢).
(٢) اعتقاد أهل السنة، للالكائي (٢٣٢٥).

فإنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما ثبت عنهم: إما معذورون، وإما مجتهدون مُتأولون، وأما غالبُ ما يُنْقل عنهم في شأن الفتنة فهو كذب، ومنه ما زِيد فيه ونقص، وغُير عن وجهه.

ويجب مع ذلك الدعاء والاستغفار لهم، فلا يُذكرون إلا بالجميل، ومَنْ ذكَرهم بسوء، فهو على غير السبيل، وقد تعرض للعقاب الوبيل؛ فإن من أصول أهل السنة والجماعة: سلامةَ ألسنتهم وقلوبهم لأصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله ﷺ: إظهارُ ما مَدَحهم الله تعالى به، وشكرهم عليه من جميل أفعالهم، وجميل سوابقهم، وأن يُغضوا عما كان منهم في حال الغضب والإغفال، وفرَط منهم عند استزلال الشيطان إياهم.

ونأخذ في ذِكْرهم بما أخبرَ الله تعالى به، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فإن الهفوة والزلل والغضب والحدة والإفراط لا يخلو منه أحد، وهو لهم مغفور، ولا يوجب ذلك البراءة منهم، ولا العداوة لهم، فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله ﷺ وزللهم، ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه»[(١)].

ذم مَنْ سبَّ الصحابة أو عابهم:

جاء النهيُ صحيحًا صريحًا عن سب أصحاب النبي، فقد قال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»[(٢)].

---

(١) الإمامة والرد على الرافضة، لأبي نعيم (ص٣٤١، ٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لا تَسُبُّوا أصحاب محمد ﷺ، فلَمقام أحدهم ساعةً- يعني: مع النبي ﷺ- خير من عمل أحدكم أربعين سنةً»[(١)].

وفي رواية: «خير من عبادة أحدكم عُمرَهُ»[(٢)].

ولما تكلم الناس في الصحابة منذ العهد الأول، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وما تَعجبون من هذا! انقطع عنهم العمل، فأحب الله ألا يقطع عنهم الأجر»[(٣)].

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «قلتُ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إني أسمع ناسًا يتناولون أصحاب محمد ﷺ! فقالت: يا بني، إن أصحاب محمد ﷺ كانوا مع رسول الله ﷺ، وكان الله ﷻ يجري لهم أجورهم، فلما قبضهم الله ﷻ، أحب أن يجري ذلك الأجرَ لهم»[(٤)].

والتنقصُ لصحابة رسول الله ﷺ علامةُ الخِذْلان للعبد، لذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن تَنَقصَ أحدًا مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ، فلا ينطوي إلا على بَليَّة، وله خبيئة سوء؛ إذ قصد إلى خير الناسِ وهم أصحاب رسول الله ﷺ»[(٥)].

«فمَنْ أضل ممن يكون في قلبه حقد على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؟! بل قد فاق ضَلالُ هؤلاء الروافض ضَلالَ اليهود والنصارى بخصلة، فقد قيل لليهود: مَن خير أهل مِلتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: مَن خير أهل مِلتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: مَن شر

(١) فضائل الصحابة، لأحمد (١٥)، وابن ماجه (١٦٢).
(٢) ابن أبي شيبة (٣٣٠٨٢)، وفضائل الصحابة، لأحمد (١٧٣٦).
(٣) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر (ص٤٢٤).
(٤) الشريعة، للآجري (١٩٩٩).
(٥) السنة، للخلال (٧٥٨).

أهل مِلتكم؟ قالوا: أصحاب محمد! لم يَستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم مَن هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة»(١).

وما قصد الزنادقة إلى إسقاط أصحاب رسول الله ﷺ إلا توسلًا لإسقاط ما نقلوه من الشرائع والأحكام، وتحايلًا على رد الكتاب والسنة اللذَين لم يصلا إلينا إلا من خلال الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتَ الرجل ينتقصُ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق؛ لأن الرسولَ ﷺ -عندنا- حق، والقرآنَ حق، وإنما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يُجَرحُوا شهودنا؛ لِيُبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة»(٢).

وكل مَنْ عاب أحدًا من الصحابة، أو سبه، أو انتقصه، فقد انتقص من دينه بقدر ذلك، أما مَن سب عامة الصحابة، أو أكثرهم، أو حَكَم بكفرهم أو فسقهم، فلا شك في كفره، بل كفرُه محل إجماع من المسلمين.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما من جاوز ذلك إلى أَنْ زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا لا يبلغون بضعة عشر نفسًا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع: من الرضا والثناء عليهم، بل مَن يشك في كفر مثل هذا؟! فإن كفره متعين، فإن مضمونَ هذه المقالة أن نَقَلة الكتاب والسنة كفار أو فُساق، وأن هذه الآية التي هي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وخيرها هو القرن الأول، كان

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (ص٤٧٠).
(٢) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي (ص٤٩).

عامتهم كفارًا أو فساقًا، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام»(١).

فضل الصحابة والثناء عليهم:

وقَدْ أثنى الله ورسوله على الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ، ووعدهم الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والسابقون الأولون- من المهاجرين والأنصار- هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهلُ بيعة الرضوان كلهم منهم.

وقد قال جل من قائل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

قال جابر بن عبد الله رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «كنا خمس عشرة مائة»(٢).

وفي رواية: «كنا ألفًا وأربعمائة»(٣).

---

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية (ص٥٨٦، ٥٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٦).

وقد قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ- إِنْ شَاءَ اللهُ- مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرضا من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافيه على موجبات الرضا، ومَن رضي عنه، لم يسخط عليه أبدًا، فكل مَن أخبر أنه رضي عنه، فإنه من أهل الجنة»[٢]، وهذا الوصف لجميع الصحابة عند جمهور العلماء.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله، لَهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا»[٣].

«وصدقوا، فإن هذه الأمة المحمدية- خصوصًا الصحابة- لم يزل ذكرهم مُعظمًا في الكتب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ [الفتح:٢٩]، أي: أفراخه التي تَنْبُتُ حوله ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ شده وقواه ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ شب وطال، واستحكم غِلْظَةً بعد الرقة ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ قوي واستقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ قصبه، جمع ساق، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ قوته وغلظه وحسن منظره مثل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك؛ لأنهم بدأوا في قلة وضعف، فكثروا وقووا على أحسن الوجوه، فآزروه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾»[٤].

ومن هذه الآية انتزع مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكفير الروافض الذين يُبغضون الصحابة،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، عن أم مبشر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.
(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية (ص٥٧٢).
(٣) كوثر المعاني الدراري، للشنقيطي (١/ ٢٤).
(٤) كوثر المعاني الدراري، للشنقيطي (١/ ٢٤).

قال: «لأنهم يغيظونهم، ومَن غاظه الصحابة فهو كافر، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء»(١).

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم، ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمَنْ كان في قلبه غل للذين آمنوا، ولم يستغفر لهم، لا يستحق في الفيء نصيبًا، بنص القرآن.

فرضي عن السابقين من غير اشتراط الإحسان، ولم يرضَ عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان.

وفي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

---

(١) حلية الأولياء، للأصبهاني (٦/ ٣٢٧)، وترتيب المدارك، للقاضي عياض (٢/ ٤٦).

قال أكثر السلف: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الجنة[١]، فهو دليل على أن الصحابة جميعًا من أهل الجنة عند أصحاب هذا القول.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩].

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «هم أصحاب محمد ﷺ»[٢].

والنبي ﷺ قد نوه بفضل صحابته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في كثير من الأحاديث، فمن ذلك:

قوله ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**»[٣].

وقوله ﷺ: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»[٤].

وقوله ﷺ: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ، أَبْغَضَهُ اللهُ**»[٥].

وفضائل الصحابة عمومًا وخصوصًا بالغة الكثرة، وقد عني الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجمعها في مصنف مستقل، فجاء بنحو ألفي حديث وأثر في هذا الباب.

وكل من صحب النبي ﷺ سَنةً أو شهرًا أو يومًا، أو رآه مؤمنًا به، فهو من أصحابه، له من الصحبة بقدر ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأدناهم صحبةً هو أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال»[٦].

---

(١) راجع: تفسير الطبري (٩/ ٩٦)، وتفسير البغوي (٨/ ٣٤).

(٢) تفسير الثعلبي (٧/ ٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (١٧)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٦) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (٣١٧).

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفضيلة الصحبة- ولو لحظة- لا يوازيها عمل، ولا تُنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

وهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما أخطأوا فيه يُغْفر لهم خطؤهم، وقد قال نبينا ﷺ لعمر: **«وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**[٢].

قالوا: إن أعمال السيئات تقع مغفورةً، فكأنها لم تقع، فهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَإِنْ قارفوا بعض الذنوب إلا أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَتْركهم مُصرِّين عليها، بل يوفقهم للتوبة النصوح، والاستغفار، والحسناتُ تمحو تلك السيئات، وفضيلةُ الصحبة لا يعدلها عمل؛ ذلك أنهم شاهدوا النبي ﷺ وخالطوه وعاملوه ونصروه، وسبقوا إليه ﷺ بالهجرة والنصرة، وقاموا بنقل الدين إلى الأمة.

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا حُب أصحاب رسوله ﷺ، واتباعهم وتوليهم، وأن يجعلنا يوم القيامة معهم وإن لم نعمل بأعمالهم.

إنه جواد كريم، بر رؤوف رحيم.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

البصيرة السابعة

في محبة آل بيت النبي ﷺ

من علامات وأسباب محبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: محبة النبي ﷺ، ومن علامات محبة نبينا ﷺ: أن نحب مَن أحبهم النبي ﷺ.

أَلَا يَا مُحِبَّ المُصْطَفَى زِدْ صَبَابَةً ... وَضَمِّخْ لسانَ الذكرِ منكَ بطِيبِهِ
ولَا تَعْبَأَنَّ بِالمُبْطِلِين فإنما ... عَلامةُ حُبِّ الله حبِّ حَبيبِهِ

وأول أحباب النبي ﷺ وأوليائه: مَن كان بمحبته ﷺ أسعد، ومَن كان منه في المحبة أوثق، ومَن كانت محبته في قلب الحبيب ﷺ أعمق، أولئك آل بيت النبي ﷺ.

ذكر آل بيت النبي ﷺ:

وآلُ بيت النبي محمد ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة من آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وبني الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(١)].

(١) فتح القدير، لابن الهمام (٢/ ٢٧٤)، المجموع، للنووي (٣/ ٤٦٦)، مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٠)، كشاف القناع، للبهوتي (٢/ ٢٩٠، ٢٩١)، وثبت من قول زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في صحيح مسلم (٢٤٠٨).

ومن آل بيته الذين جللهم بالكساء: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وذريتهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[١]، وهم الأخيار الأبرار، والذرية الأطهار، أشرف بيت حسبًا، وأكرمهم نسبًا.

وأهل السنة والجماعة يتقربون بحبهم وحمايتهم، والذب عن أعراضهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويَتدينون ببُغض مَن أبغضهم، أو قدح فيهم، ويجهرون بوصية رسول الله ﷺ بمودتهم، ويوالونهم ويجلونهم، ويتبرؤون من طريقة النواصب، ولا يغلون فيهم، ولا يقولون بعصمتهم، ويتبرؤون من طريقة الروافض، ويرفعون محسنهم، ويقولون لمسيئهم بقول نبيهم ﷺ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[٢].

ومَن جمع بين طيب النسب وصالح العمل، فقد جمع الخيرين، وحاز الفضلين.

ومن آل بيت النبي ﷺ: الزوجات الطاهرات المطهرات المُبرآت والحليلات في الدنيا، وفي أعلى الجنات، هُن أمهات المؤمنين اللائي أذهب الله عنهن كل رجس، ونزههن عن كل دنس، ولا سيما خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي انفردت بنبينا ﷺ، فلم ينكح عليها، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي انفرد بها، فلم ينكحها قبله غيره، فكانت بِكْرَه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

وعن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «يعظم بذلك حقهن»[٣].

---

(١) كما ورد عند الترمذي (٣٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ١٦).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «أي: في تحريم نكاحهن على التأبيد، ووجوب إجلالهن وتعظيمهن، ولا تجري عليهن أحكام الأُمهات في كل شيء، إِذ لو كان كذلك، لَمَا جاز لأحد أن يتزوج بناتهن، ولورِثن المسلمين»(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢٨- ٣٣].

ذكر زوجات النبي ﷺ:

١- خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أولى زوجات النبي ﷺ، أَرْسلت إليه ﷺ بعدما حدثها غلامها ميسرة بما شاهد من كمالات النبي ﷺ، وما ظهر من بركاته في سفره إلى بلاد الشام، واشتهاره في مكة بالصادق الأمين، فأَرسلت إليه قائلةً: يا ابن عم، إني قد رغبتُ فيك لقرابتك، وثقتك في قومك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، فذكر ذلك ﷺ لأعمامه، فمشى معه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب حتى دخلا على والدها خويلد بن أسد، فخطباها إليه، فزوجها إياه ﷺ، وأصدقها

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٣/ ٤٤٨).

رسول الله ﷺ عشرين بكرةً(١).

وكانت أول امرأة يتزوجها رسول الله ﷺ، وقد تزوجها قبل بعثته بخمسة عشر عامًا، ولم يتزوج غيرها حتى توفاه الله، وكل أولاده منها إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية المصرية.

وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول مَن آمن بالنبي ﷺ من النساء، وكان رسول الله ﷺ يحبها، ويحن لِذِكرها، ويدفع عنها حتى بعد وفاتها، وقد عرضت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يومًا بذِكرها قائلةً: قد أبدلك الله خيرًا منها -تعني: نفسها، لما تعرف من محبة نبيها لها- فقال ﷺ: «**مَا أَبْدَلَنِي اللهُ ﷻ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وواسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ ﷻ ولدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ**»(٢).

وَعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما غِرتُ على امرأة للنبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة، هلكَت قبل أن يتزوجني؛ لِما كنتُ أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن»(٣).

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُدْعى في الجاهلية بالطاهرة.

وعاش النبي ﷺ بعد أن تزوج من خديجة ثمانيةً وثلاثين عامًا، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا، وهي نحو الثلثين من مجموع عُمُره ﷺ بعد أن تزوج ﷺ.

---

(١) السير والمغازي، لابن إسحاق (ص٨٢)، وسيرة ابن هشام (١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

سبقت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى الإيمان، وصان اللهُ ﷻ قلبَها من الغيرة، ومِن نكد الضرائر.

ورُزق النبي ﷺ منها الولد (زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، والقاسم، وعبد الله).

وجاءتها البشارة بالجنة في حياتها، ففي الحديث عن ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ بَشَّر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب»(١).

٢- ثم إنه تزوج بمكة في السنة العاشرة من البعثة: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، وهي ثيب، وخَطبَتْها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، فدخل بها بمكة، وأصدقها أربعمائة درهم، فكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة(٢)، وتُوفيت في آخر زمان عمر بن الخطاب، وقيل: تُوفيت سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية.

٣- ثم تزوج النبي ﷺ بعائشة بمكة، فلم يَبْنِ بها حتى هاجر إلى المدينة، وبنى بها في شوال، من السنة الثانية من الهجرة، وكانت يومئذ بنت تسع سنين.

وكان ﷺ يحبها محبةً شديدةً، فعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قُحَافة، وأنا ساكتة، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: **أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ**؟ فقالت: بلى. قال: **فَأَحِبِّي هَذِهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٩٢)، ومسلم (٢٤٣٢).

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٤/ ٢٠٤)، والسير والمغازي، لابن إسحاق (ص٢٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٤٢).

وكان النبي ﷺ يُصرح بحُبها على رؤوس الأشهاد، ففي الحديث عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: «فأتيته، فقلت: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: **عائشةُ**، فقلت: من الرجال؟ فقال: **أبوها**»[(١)].

٤- ثم تزوج حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في شهر شعبان من السنة الثالثة من الهجرة، وأمهرها- أيضًا- أربعمائة درهم، وتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، وتوفيت سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة[(٢)].

٥- ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت تُدعى في الجاهلية: أُم المساكين، فتزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث، ولبثت عنده ثمانية أشهر أو أقل، وماتت بالمدينة، وعمرها نحو ثلاثين سنة، وماتت في حياته ﷺ[(٣)].

٦- ثم تزوج أُم سلمة بنت أبي أمية المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة والمدينة، وتزوجها النبي ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع، وزوجها ابنُها عمرُ من رسول الله ﷺ، وماتت في شوال سنة تسع وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)].

٧- ثم تزوج جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي من بني المصطلق، أصابها رسول الله ﷺ يوم المريسيع، فأعتقها، وتزوجها في سنة خمس، وتوفيت بالمدينة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ٨٦).
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ١١٥).
(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ٩٦).

سنة ست وخمسين في ربيع الأول[١].

٨- ثم تزوج زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سنة خمس من الهجرة، وقد زوجه الله بها، وبعث في ذلك جبريل، فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تفخر بذلك على سائر الزوجات، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات»[٢]، وهي أول مَنْ تُوفي من الزوجات بعد النبي ﷺ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا**، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق»[٣].

٩- ثم تزوج أُم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واسمها رملة، تُوفي زوجها وهي مهاجرة معه بالحبشة، فلما انقضت عدتها، بعث النبي ﷺ إلى النجاشي يخطبها، فتزوجها النبي ﷺ، وأمهرها النجاشي من عنده بأربعمائة دينار، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وماتت سنة ثنتين وأربعين[٤].

١٠- ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من ذرية هارون بن عمران أخي موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في السنة السابعة من الهجرة، وما بلغت سبع عشرة سنةً يوم دخل عليها رسول الله ﷺ، وماتت سنة اثنتين وخمسين[٥].

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ١١٧- ١١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥٢).
(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ٩٧).
(٥) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ١٢٩).

١١- ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي خالة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع لما اعتمر عمرة القضية، فأرسل إلى العباس يخطبها، فأذنت له، فزوجها منه، وكانت آخر امرأة تزوجها نبينا ﷺ(١).

وتزوج نبينا ﷺ سودة وأم حبيبة وأم سلمة وميمونة وزينب بنت الحارث، وكلهن أرامل؛ إيواءً لهن لما فَقَدْنَ أزواجهن، وتخفيفًا عنهن لما أصابهن من ابتلاء واضطهاد في ذات الله تعالى.

وزوجه الله تعالى زينب بنت جحش لحِكم عظيمة جليلة، وزوجه من حفصة وعائشة؛ إكرامًا لخليفتيه ووزيريه وعضديه أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وزوجه بصفية وجويرية؛ جَبْرًا لقلوبهن بعد أن قُتل أزواجهن في المعارك التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين أزواجهن.

وأولئك جميعًا آل النبي ﷺ الذين قال فيهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته»(٢).

فاللهم إنا نُشْهدك على محبتهم، ونعاهدك على نُصرتهم، والذب عنهم، وأن نذكر مناقبهم.

ونسأل الله تعالى أن يحققنا بمحبتهم ومودتهم؛ إرضاءً لنبينا ﷺ، وتعبدًا لربنا جل في علاه، حيث قال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/ ١٣٢، ١٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٣).

البصيرة الثامنة
في فضيلة العلم وقيمته

العلمية مَعلم ظاهر، وخط أصيل من خطوط تكوين الشخصية المسلمة، بل العلم هو الأساس الذي تُبْنى عليه حياة المسلم؛ سواء في ذلك بناء العقائد والعبادات والأخلاق والتعاملات، وغيرها.

معالم في فضل العلم وأهله:

العلم بالله تعالى، والتفقه في دينه أعظم من أن يُحاط بفضله، أو يُدرك جليلُ قدره «تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة»(١).

والعلم الذي وردت النصوص في فضله، والثواب عليه، ورفعة أهله إنما هو علم الشريعة، عقيدةً وعبادةً وعملًا، وليس علم ما يتعلق بالدنيا؛ كالحساب والهندسة، وما أشبه ذلك، فهذه العلوم وإن كان فيها فضل من جهة عمارة الأرض، ونفع الخلق، لكنها لا توصف بهذه الفضائل العظيمة الواردة في علم الدين والشرع.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢٦٩) من كلام معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تنويه الله بشرف العلم وفضله:

يكفي العلم فضلًا وشرفًا أن الله تعالى نوه بعظم شأنه، وجلالة فضله، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وهذا استفهام إنكاري في معنى النفي، فلا استواء بينهم، وأُبْهِم النص على قدر ما بينهما من التفاوت؛ تعظيمًا له وتفخيمًا، فتذهب الأنفسُ فيه كل مذهب، وتطير فيه كل مطار، وهذه الآية من جنس ما فرق الله به بين المتضادات المتباينات؛ كتفريق الله تعالى في كتابه بين الخبيث والطيب، وبين الأعمى والبصير، وبين الظل والحرور، وبين الظلمات والنور.

رفعة الله لأهل العلم:

ويكفي أهل العلم وحملته رفعةً وعزًّا أن الله تعالى نصَّ في كتابه على رفعة درجاتهم، فقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، فيرفعهم درجات بما جمعوا من العلم النافع والعمل الصالح.

قال ابن جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: «يقول تعالى ذِكْرُه: يرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم- بفضل علمهم- درجات إذا عملوا بما أُمِروا به»(١)، وكلمة «درجات» هنا نكرة في سياق الامتنان، فتفيد العموم والشمول، فهذه الدرجات لا يحيط بها إلا الله سبحانه.

ولا أدل على رفعة الله تعالى لأهل العلم من اقتران ذِكرهم بذِكْره عز شأنه، وجمعهم مع ذاته الشريفة، ومع الرسول الأعظم محمد ﷺ، ومع الملائكة المُقربين في سياق واحد في غير ما آية من كتابه، فقَرَنهم بذِكْره سبحانه في قوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) تفسير ابن جرير (٢٢/ ٤٨٠).

كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]، وقوله عز شأنه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، وجَمَعهم معه ومع رسوله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وأولو الأمر هُمْ أهل العلم، كما قال ذلك جماعة من السلف.

وجمعهم سبحانه مع نفسه العلية، ومع ملائكته المقربين في سياق واحد، واستشهدهم على أعظم مشهود عليه، وهو توحيده سبحانه، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي طلب الله شهادة أهل العلم تزكية منه لهم؛ لأن غير العدل الصادق لا تُعْتبر شهادته، وهذه الآيةُ من أعظم الآيات في فضل العلم وأهله.

وقد بيّن ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوجهًا من دلالة هذه الآية على فضل أهل العلم، فقال ما خلاصته: «وهذا يدلُّ على فضل العلم وأهله من وجوه:

الأول: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

الثالث: واقترانها بشهادة ملائكته.

الرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، وعن النبي ﷺ: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»(١).

الخامس: أنه سبحانه شهد بنفسه، وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٠٩١١)، والطبراني في مسند الشاميين (٥٩٩).

ملائكته، والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلًا وشرفًا.

السادس: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به، وأعظمه، وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيمُ القدرُ إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

السابع: أنه سبحانه جعل شهادتهم حُجةً على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

الثامن: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه، ومن ملائكته، ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكإنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادة...»[1].

طلب العلم جهادٌ في سبيل الله:

طلبُ العلم جهاد في سبيل الله، والارتحال في طلبه والسعي فيه نفير كنفير المجاهدين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد نص على ذلك نبينا ﷺ، فقال كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**»[2]، وقد مرَّ قول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العلم: «والبحث عنه جهاد».

فلا فرق بين المجاهد الذي يسوي قِدْحَ قوسه، وبين طالب العلم الذي يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب، كل منهم يعمل للجهاد في سبيل الله،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩) مختصرًا.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧).

وبيان شريعة الله لعباد الله، بل العلم من أعظم الجهاد؛ ذلك أن عليه يُبْنى الجهاد وسائر شرائع الإسلام؛ لأن من لا يعلم، لا يمكنه أن يعمل على الوجه المطلوب، فالفقه في دين الله- حال السعة والاختيار- معادل للجهاد في سبيل الله، بل أولى منه؛ لأن العلم أصل للجهاد ولسائر أعمال الدين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان الجهاد نوعين:

جهاد باليد والسِّنان، وهذا المشارك فيه كثير.

والثاني: الجهاد بالحُجَّة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه.

قال تعالى في سورة الفرقان- وهي مكية-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فَهَذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين»(١).

طلب العلم أفضلُ الأعمال:

ولما كان العلم بهذه المثابة والمنزلة في بناء الشخصيات المؤمنة، وفي صلاحها، وكان به قِوام سائر أعمال الدين، وكان نفعه متعديًا، وأثره منتشرًا واسعًا، لما كان كل ذلك، قال كثير من أهل العلم: إن طلب العلم أفضل الأعمال، بشرط سلامة النية، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طلب العلم أفضل الأعمال لمَن صحت نيته»(٢)، وقال- أيضًا- الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة»(٣).

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٠).
(٢) الفروع، لابن مفلح (١/ ٥٢٣، ٥٢٤).
(٣) السنن الكبرى، للبيهقي (٤٧٤).

وجه ذلك: أن العلم إما فرض عين، أو كفاية، أو نافلة، فأما فرض العين والكفاية من العلم وغيره فأفضل من نفل الصلاة، وأما نفل العلم فنفعُهُ أكثر من نفع نفل الصلاة، وذلك لتعدي نفع العلم، ولكون نفع الصلاة قاصرًا، والمتعدي أفضل من القاصر.

وهذا المسلك الذي سلكه هؤلاء الأئمة إنما تلقوه عن الصحابة والتابعين، فعن الأوزاعي قال: «جاء رجل إلى ابن مسعود، فقال: يا أبا عبد الرحمن، أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، ثم سأله: أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، قال: أنا أسألك عن أفضل الأعمال، وأنت تقول: العلم؟ قال: ويحك! إن مع العلم بالله ينفعك قليل العمل وكثيره، ومع الجهل بالله لا ينفعك قليل العمل، ولا كثيره»[(١)].

وقال الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم»[(٢)].

ولأن العلم هو أفضل الأعمال، أُمِرَ رسول الله ﷺ بالاستزادة منه، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، فما أمر اللهُ رسولَه ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم، وهذا يدل على عظم منزلته، وشرف محله.

العلم طريق العمل:

إن العلم إمام العمل، وهو أمام العمل، ولا يصح ولا ينضبط عمل بلا علم، فلا يجوز لأحد أن يُقْدم على عمل من الأعمال حتى يعلم أحكامه، وحلاله وحرامه، وما يحقق وجوده، وما يبطله.

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغزالي حكى الإجماع في (إحياء علوم الدين)، والشافعي في (رسالته) حكاه- أيضًا- في أن المكلف لا يجوز له أن يُقْدم على فعل حتى يعلم

(١) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي (٤٦٦).
(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣/ ٣٦٥).

حكم الله فيه»[١]، فالعلم إمام العمل، والعمل تابعه، والعلم شجرة، والعمل ثمرته.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعَد عالمًا مَن لم يكن بعلمه عاملًا»[٢]، ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تعلموا تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا»[٣]، فإذا كانت العبادة هي غاية وجود الإنسان، وهي علة خلقه، فإن الطريق الأقرب إليها والسبيل الأقوم إلى تحصيلها هو العلم.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن العلم والعبادة جوهران، لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين، ونظر الناظرين، بل لأجلهما أُنْزلت الكتب، وأُرْسلت الرسل، ولأجلهما خُلقت السماوات والأرض، وما فيهما، فتأمل آيتين في كتاب الله ﷻ:

إحداهما: قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وكفى بهذه الآية دليلًا على شرف العلم، لا سيما علم التوحيد.

والثانية: هي قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وكفى بهذه الآية دليلًا على شرف العبادة، ولزوم الإقبال عليها.

فأَعْظِمْ بأمرين هما المقصود من خَلق الدارين، فحق للعبد ألا يشتغل إلا بهما، ولا ينظر إلا فيهما.

فاعلم أن ما سواهما من الأمور باطل لا خير فيه، ولغو لا حاصل له.

---

(١) الفروق، للقرافي (٢/ ١٤٨).

(٢) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي (ص١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٦٨٩)، والدارمي (٣٧٨).

فإذا علمت ذلك، فاعلم أن العلم أشرف الجَوْهرين وأفضلهما... ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم، وإلا كان علمه هباءً منثورًا؛ فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة، والشرف للشجرة؛ إذ هي الأصل، لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرها»(١).

فمن أراد العبادة فعليه بالعلم، ومن أراد العمل فعليه بالعلم، ومن أراد الأجر والثواب فعليه بالعلم، ومن عمل بغير علم، فهو على خطر الضلال والهوى، ومن تعلم فلم يعمل، فهو على خطر عظيم؛ إذ لم يزد إلا من الاستكثار من حُجج الله تعالى عليه، وقد قال الله تعالى في بيان الذين ضل سعيهم: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالمغضوب عليهم هم الذين لم يعملوا بعلمهم، والضالون هم الذين عملوا على جهل وضلال، وقد اشتد نكير السلف على الفئتين معًا.

العلم طريق الخشية والعصمة:

إن من أعظم ما يراد العلم لأجله: أنه يورث صاحبه خشية علام الغيوب، ويُعينه- بإذن الله- على العصمة من الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يخشاه حق خشيته: العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»(٢).

(١) منهاج العابدين، للغزالي (ص٥٩، ٦٠) بتصرف.
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٤).

وكما وصف الله تعالى أهل العلم بالخشية، وصفهم بالخشوع والبكاء من خشية الله تعالى وتعظيمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، يَعْني: ذلك الفضل والأجر والجنات، كل ذلك لمَن خشي ربه، وإذا كان أهل الخشية التامة هم العلماء، فيخرج من هاتين الآيتين أن العلماء الذين يخشون ربهم هم خير البرية.

ومما تقدم يتبين- أيضًا-: أن العلم النافع هو العلم الذي يورث صاحبه خشية الله تعالى، فالعالِم الذي لا يزداد بالعلم خشيةً وهدًى، فعلمه عليه لا له.

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متى أردت أن تشرف بالعلم، وتنسب إليه، وتكون من أهله قبل أن تُعْطي العلم ما له عليك، احتجب عنك نوره، وبقي عليك رسمُهُ وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، وذلك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه، رحلت بركاته»(١).

والعلم سبيل العصمة من الشرك والمعاصي، والشهوات والشبهات؛ ذلك لأن خشية الله تعالى هي سبب العصمة والنجاة، ومن الأدلة على ذلك أيضًا: ما قص الله تعالى في سياق قصة قارون، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي (٢٨).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذِكرُهُ: وقال الذين أوتوا العلم بالله حين رأوا قارون خارجًا عليهم في زينته للذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون: ويلكم، اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمَن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة، خير مما أُوتِيَ قارون من زينته وماله»(١).

ويقول الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما العلماء، فنجوا من فتنة قارون بعلمهم»(٢).

فالعلماء هم الذين لا ينزلقون في حبال الشهوات، ولا في تمني الدنيا، ولا يقعون في الشبهات، فهُمْ- بحَول الله تعالى- في عصمة من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٣، ٥٤].

ومع فضيلة العلم وحسن أثره في النجاة من الفتن والمُلمات إلا أن العالم الحق لا يغادر قلبه لحظةً الفرق من تغير حاله، وضلاله بعد الهدى، فلا يأمن مكر الله، ولا يركن إلى علمه وذكائه، بل ينطرح بين يدي ربه ومولاه يسأله الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، ويستعيذ به من السلب بعد العطاء، والحَور بعد الكَور، متأسيًا في ذلك بنبينا ﷺ، فعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أُم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: «كان أكثر دعائه: **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**، قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لأكثر دعائك: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك؟ قال: **يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ**

(١) تفسير ابن جرير (١٨/ ٣٣٠).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير، للصنعاني (٣/ ٥١٨).

آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»(١).

والعلم يراد- أيضًا- للأدب، فالعلمُ مَجلبة للأدب، وأحق الناس وأولاهم بالأدب أهل العلم، وأهل العلم هم أهل الأدب الجميل، فهذا مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقال فيه: «ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه»(٢)، وهذا أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقال فيه: «كان يجتمع في مجلس أحمد زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب، وحسن السمْت»(٣)، فللأدب عند أهل العلم شأن عظيم، ولا يُعْرف عالِم ظهرت عليه أنوار العلم وبركاته إلا وهو من أهل الأدب.

قال يوسف بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «بالأدب تفهم العلم، وبالعلم يصح لك العمل»(٤)، فمن أراد العلم والفقه بغير أدب، فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله، وحقيقة الأدب: استعمال الخُلق الجميل في كل شأن، فلا أدب إلا بعلم، ولا علم إلا بأدب.

حديث جامع في فضل العلم وأهله:

كما أن العلم طريق للعمل والعبادة، فهو طريق قاصد إلى جنة الله ورضوانه، وهو طريق إلى كل خير ديني ودنيوي، كما في الحديث الجامع في فضل العلم وأهله: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِن المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ١١٣).
(٣) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٢٨٨).
(٤) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي (٢٧).

وَالأَرْضِ، حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[(١)].

إنما نكر «علمًا» في قوله: «**يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا**»؛ ليتناول كل نوع من أنواع علوم الدين، ويندرج تحته قليل العلم وكثيره، فمَن مشى إلى تحصيل علم شرعي قاصدًا به وجه الله تعالى، جَازاه الله عليه بأن يوصله إلى الجنة مسلمًا مُكرمًا.

وقوله: «**يَطْلُبُ**»، فيه حض وترغيب في الرحلة في طلب العلم، والاجتهاد في تحصيله.

وهذا حديث عظيم يدل على أنه لا يبلغ أحد من الخلق رتبة العلماء، وأن رتبتهم ثانية بعد رتبة الأنبياء؛ لأن العابد يستعمل أزمانه في النوافل من الصلاة والصوم والذكر، والعالِم يستعمل أزمانه في طلب العلم وحفظه وتقييده وتعليمه، فقد كمل العالِم في نفسه، واستضاء الخَلقُ بنور علمه، فمن هذه الجهة شبهه الرسول بالبدر الذي حاز النور في نفسه، واستضاء به كل شيء، أما العابد فإن غايته أن ينتفع في نفسه، ولذلك شبهه بالكوكب الذي غايته أن يظهر نفسه.

وإنما خص العلماء بوراثة العلم النبوي- وإنْ كان العباد- أيضًا- قد ورثوا عنه العلم بما صاروا به عبادًا- لأن العلماء هم الذين نابوا عن النبي ﷺ في حَمْلهم العلم عنه، وتبليغهم إياه لأُمته، والسعي في إرشاد السائل، وتعليم الجاهل، وهداية الضال.

وبالجملة، فالعلماء هم العالمون بمصالح الأمة بعده، الذابون عن سُنته،

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٥٠)، وأبو داود (٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢).

الحافظون لشريعته، فهؤلاء الأحق بالوراثة، والأولى بالنيابة والخلافة، وأما العباد فلم يطلق عليهم اسم الوراثة؛ لقصور نفعهم، ويسير حظهم[(١)].

لذا كان العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم، ثَلَم في الإسلام ثُلْمةً لا يسدها إلا خَلَف منه، فعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كانوا يقولون: موت العالم ثُلْمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار»[(٢)].

إلى هنا نتوقف مع فضائل العلم وبركاته وأنواره، وآخر ذلك أن نقول: إن العلم هو حياة الإسلام، وهو سبب التمكين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَنْ طلب العلم ليحيي به الإسلام، فهو من الصديقين، ودرجته بعد درجة النبوة»[(٣)].

علَّمنا الله ما ينفعنا، ونفعنا بما علمنا، وجعل العلم حجةً لنا لا علينا، وآتى نفوسنا تقواها وزكاها، إنه خير من زكاها، إنه وليها ومولاها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) المفهم، للقرطبي (٦/ ٦٨٥، ٦٨٦).
(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٣)، وجامع بيان العلم، لابن عبد البر (١٠٢١).
(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ١٢١).

البصيرة التاسعة

في التربية الإيمانية

إن أعظم مهام الأنبياء هي الدعوة إلى الله تعالى، وإن التربية على الإيمان والدين لهي من أعظم أنواع الدعوة، وأعمقها أثرًا؛ ذلك أن التربية دعوة من نوع خاص، لا تكتفي ببلاغ وتبيين، أو تقتصر على ترغيب وترهيب، أو تجتزئ بوعظ وتذكير، وإنما تشمل ذلك كله، وتزيد عليه كثيرًا؛ إذ هي عملية متدرجة مستمرة تتعاهد نفسَ المتربي باستنبات الفضائل وتنميتها، والتخلي عن الرذائل وإزالتها، فهي أعم وأوسع من مجرد البلاغ والوعظ، ففيها القدوة والمعايشة، وفيها التوجيه والمتابعة، وفيها خوض المواقف، والتربية بالأحداث، وغير ذلك.

أساس التربية النبوية:

وقد كان النبي ﷺ أعظم مُرَبٍّ عرفته الإنسانية، فقد بُعث لقبائل متفرقة، وأمم متنازعة، فعلمهم من الجهالة، وهداهم من الضلالة، وبصرهم من العماية، وهذبهم من شراسة الطباع والأخلاق حتى غير بتربيته لهم وجه الدنيا، ومسار التاريخ.

وإذا سيق الحديث عن التربية الإيمانية، فلا بد من استلهام تربية الرعيل الأول الذين رباهم نبينا ﷺ، فقد كان للسلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقه في تربيتهم الإيمانية، وفقه في تلقيهم للإيمان، فقد سبقت– عندهم– أولويةُ الإيمان القائم على الوحي الصادق

كل أولوية، وعلى أساسه قامت المحاضن التربوية النبوية، وعلى هذا الأساس من قبلُ قامت التربية القرآنية، فالقرآن المكي ما كان يتنزل بأبعد من قضايا الإيمان، وترسيخ قدمه في قلوب أهله، حتى سبق الإيمان العلم بالتكاليف الشرعية العملية.

وذلك لأن حاجة الإنسان في كل زمان ومكان إلى الإيمان؛ تحققًا بالافتقار إلى الله، وتذللًا لجنابه- جل في عُلَاه- مع كمال الحب والإجلال والتعظيم- أعظم حاجة.

ولقد كان بناء الخوف من الله متآزرًا في القلوب مع بناء الرجاء والتوكل، حتى إذا استقرت في القلوب عظمةُ الخالق الجليل، وخالطت محبته شِغاف القلوب التي صار مرادُها مرادَه، ومطلوبُها مطلوبَه، نزلت عند ذلك آيات التشريع والأحكام، وتلقوا عن الله ﷻ أمره ونهيه بقلوب مطمئنة راضية بشرعه وأمره ونهيه، كما رضيت بقضائه وقدره.

تقديم التربية الإيمانية على العلم:

ولا يحسبن أحد أن هذه التربية كانت في مكة دون المدينة، فهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي قصة التربية المدنية، فيقول: «كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر الذي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيه»[(١)].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان الرجل منَّا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»[(٢)].

وعن أبي عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٤٧)، والبيهقي في السنن (٥٢٨٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٤٥٠).

أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»(١).

فلم يكونوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتجاوزون العشر آيات، حتى يتعلموا منها كيف يُعظمون الأمر والآمر، والنهي والناهي، وكيف يُوقرون الحُكم والشعائر، ثم يتعلمون منها الحلال والحرام، ثم يستظهرون الآيات، ويتدبرون ما فيها من المعاني والعظات، ثم يعملون بعلمها ما أمكنهم العمل.

وما لم تتحقق مثل تلك التربية أو قريبًا منها، فإن الثمرة منقوصة، والنتائج مدخولة.

وعن جُندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا فتيانًا حزاورة، فتعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا»(٢).

العلم بغير تربية وبالٌ على صاحبه:

التربية الإيمانية لا بد أن تسبق التعلم، وإلا فعلم بلا تربية علم لا ينفع، قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

ولا بد من التربية الإيمانية قبل التعلم، وإلا فقلب مَن تعلم ولم يتزك، قلب لا يخشع، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن قَلْبٍ لا يَخْشَعُ**»(٣)، وكذلك نفسُ مَن فقد التزكية، نفسٌ لا تشبع، وفي الحديث:

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٤).
(٢) السنة، لعبد الله بن أحمد (٧٩٩)، والسنة، لأبي بكر الخلال (١٥٩٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٨٢).

«أن النبي ﷺ كان يتعوذ من نفس لا تشبع»[١].

فمن لم يتلق التربية قبل العلم ومعه، صار وعاء سوء للعلم، عياذًا بالله، ومن لم يستعمل علمه في تليين قسوة قلبه، فمَثَلُه مَثَل العليل الذي جمع أصناف الدواء، فلم يتعاطها، فأي رجاء يكون عنده في الشفاء، ومَثَله مَثَل الخائض غمار الحروب بأسلحة لا يستعملها، فأي رجاء يكون لديه في النصر؟!

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فشَخَص ببصره إلى السماء، ثم قال: **هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ،** فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُخْتلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنَقرإنه ولنُقْرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زيادُ، إِنْ كُنتُ لأَعُدُّكَ مِن فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْراةُ والإنجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ والنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**»[٢].

والعلم بغير تربية علم بلا عمل، والعلم بلا عمل جنون، والعمل بلا تربية مجون! ذلك أن العلم استكثار من حجج الله على النفس، فإن تخلف صاحب العلم عن العمل، كان علمه شرا ووبالًا عليه.

ولو كان مجرد العلم كافيًا بلا عمل، لكان العلم بفضل القيام مُغنيًا عن القيام.

ولو كان العلم بغير عمل محققًا للفضل، لكفى أن يقول النبي ﷺ: صوموا وصلوا، فيعلموا هذه المقولة، ثم يثابوا ثواب الصائم القائم، وليس هذا لأحد، بل إن النبي ﷺ قال: «**نِعمَ الرَّجلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي من اللَّيْلِ**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

وابن عمر مَعدود من علماء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فما ترك بعدها القيام؛ ولهذا نعى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على بعض الناس ما وجده من عناية بعضهم بالألفاظ دون المعاني، حتى إن أحدهم لَيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره، ولا زاجره، فقال: «لقد عِشنا برهةً من دهر، وأحدنا يُؤْتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ولا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نَثْر الدقَل»(١).

فماذا عساه يقول لو اطلع على أهل هذا الزمان؟!

والعلم الذي لا يجافي صاحبه عن الفضول، وكل قول وفعل مرذول، ويحمله على الطاعة، ويزود القلب بالقناعة، فإنه قد لا يجافي صاحبه عن العذاب يوم القيامة!

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية»(٢).

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية لله عَزَّ وَجَلَّ»(٣).

وأخيرًا، فالعلم بلا تربية لا ثبات له، ولا بركة له، ولا أثر، كما روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال:

---

(١) مشكل الآثار، للطحاوي (١٤٥٣)، الإيمان، لابن منده (٢٠٧).

(٢) الزهد، لأحمد (٨٧٢).

(٣) الحلية، لأبي نعيم (٦/ ٣٧٠).

هَتَـــفَ العِلْـــمُ بِالعَمَـــلْ فَـــإِنْ أَجَابَـــهُ وَإِلا ارْتَحَـــلْ[١]

عناية التربية النبوية ببرِّ القلوب قبل الجوارح:

كان النبي ﷺ ينهى عن التعسير، ويأمر بالتيسير، ودينُهُ الذي بعث به يسر، وكان يقول ﷺ: «**خَيرُ دِينكُم أيسرُهُ**»[٢].

ورأى رجلًا يكثر الصلاة، فقال: «**إنكُم أُمَّةٌ أُرِيدَ بِكُمُ اليُسرُ**»[٣].

ولم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب، وطهارتها، وسلامتها، وقوة تعلقها بالله خشيةً له، ومحبةً وإجلالًا وتعظيمًا ورغبةً فيما عنده، وزهدًا فيما يفنى[٤].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**والله، إِنِّي لأعلَمُكُم بالله ﷻ، وأتقاكُم لهُ قَلبًا**»[٥].

وقد قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للتابعين: «لَأنتم أكثرُ عملًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا خيرًا منكم، كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة»[٦].

وقال بكر المزني: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام، ولا صلاة، ولكن بشيء وَقَر في صدره»[٧].

---

(١) ذم من لا يعمل بعلمه، لابن عساكر (١٤).

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (١٣٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٣٤٧).

(٤) لطائف المعارف، لابن رجب (ص٢٥٤).

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٣١٩).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٥٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٥٣).

(٧) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١١١٧).

وقال بعض العلماء المتقدمين: «الذي وَقَر في صدره هو حب الله، والنصيحة لخلقه»(١).

وسُئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله، فقالت: «والله، ما كان بأكثر الناس صلاةً، ولا بأكثرهم صيامًا، ولكن- والله- ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحن الناسُ ولا خليفة لهم»(٢).

قال بعض السلف: «ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة، ولا صيام، ولكن بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة، وزاد بعضهم: واحتقار أنفسهم»(٣).

وذُكر لبعضهم شدة اجتهاد بني إسرائيل في العبادة، فقال: «إنما يريد الله منكم صدق النية فيما عنده، فمَن كان بالله أعرف، فهو له أخوف، وفيما عنده أرغب، فهو أفضل ممن دونه في ذلك وإن كَثُر صومه وصلاته»(٤).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصيامهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين»(٥).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا: «ولهذا المعنى كان فضل العلم النافع الدال

---

(١) لطائف المعارف، لابن رجب (ص٢٥٤).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم (ص٢٤٧).

(٣) لطائف المعارف (ص٢٥٤).

(٤) المصدر السابق (ص٢٥٤).

(٥) الزهد، لأحمد (٧٤٢)، حلية الأولياء، لأبي نعيم (١/ ٢١١).

على معرفة الله وخشيته ومحبته، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، لا سيما عند غَلَبَة الجهل، والتعبد به أفضل من التطوع بأعمال الجوارح»(١).

ثمرة التربية الإيمانية ولذَّة الإيمان:

بهذا المنهج الرشيد تلقى أصحاب النبي ﷺ الإيمان، وهكذا كل مَن سار على دَرْبهم إلى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، فكان من ثمرته نعمة استشعار لذة الإيمان التي هي من أعظم نِعَم الله على عباده، تلك النعمة التي لا تُوصف، ولا يدركها إلا مَن ذاقها، نعمة تَرفع العبد، وتُبارك العمر، وتُزكي القلب، وتتلذذ بها الروح، حتى قال قائلهم: «إنه لتمرُّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»(٢).

هؤلاء الذين يتنعمون بمعاني الإيمان، ويتلذذون بذكر الرحمن.

وقال آخر: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه- أي: من السعادة- لَجَالدونا عليه بالسيوف»(٣).

وقيل: «ما طابت الدنيا إلا بذِكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنان إلا برؤيته»(٤).

وعلى هذا الحال تأسف من قال: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيه. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: ذِكر الله ومحبته، والأنس به،

---

(١) لطائف المعارف (ص٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) من قول أبي سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في البداية والنهاية، لابن كثير (١٠/ ٢٥٧)، ومجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٠/ ٦٤٧).

(٣) صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص٢٩٩)، إغاثة اللهفان، لابن القيم (٢/ ٩٤٧).

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٩/ ٣٧٢) من كلام ذي النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته»[١].

وهكذا، فإن في الدنيا جنة، مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هؤلاء المتنعمون بالإيمان، المتنفعون بذِكر الرحمن، المتلذذون بالشوق إلى لقائه وجنته، لا يخلو عنهم الزمان وإن قل وندُر، لكن لا يمكن بحال أن يخلو عنهم الزمان، لك أن تقول: إنهم أندرُ في هذا الوقت من الكِبْريت الأحمر، فيا لهف الأنفس إليهم، ورثوا مجالس الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

مجالس التربية:

وقد كانت مجالس الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مجالس تطمئن فيها القلوب، ويزداد فيها الإيمان، يقول أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لَمجلس كنت أجالسه عبد الله بن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة»[٢].

مَجَالِسُــهُمْ مِثْــلُ الريَــاضِ أَنِيقَــةٌ لَقَدْ طَابَ مِنْهَا الريحُ وَاللَّوْنُ وَالطعْمُ

وكذلك كانت مجالس التابعين لهم بإحسان، كيف لا وقد كان يعظهم في مجالسهم أمثال: محمد بن سيرين، وأيوب السختياني، والحسن البصري، وغيرهم!

قيل ليونس بن عبيد رَحِمَهُٱللَّهُ: أتعرف أحدًا يعمل بعمل الحسن البصري؟ فقال: «والله، لا أعرف أحدًا يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله»، ثم وصفه فقال: «كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أُمر بضرب عنقه، وإذا ذُكرت النار، فكأنها لم تُخلق إلا له»[٣].

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٨/ ١٦٧) من كلام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُٱللَّهُ.
(٢) المعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/ ٥٤٥).
(٣) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري (١١٩٢).

إِذَا سَـكَنَ الغَـدِيرُ عَلَـى صَـفَاء ... وَجُنِّـبَ أَنْ يُحَرِّكَـهُ النَسِـيمُ
بَـدَتْ فِيـهِ السَـمَاءُ بِـلَا امْتِـرَاء ... كَـذَاكَ الشَـمْسُ تَبْـدُو وَالنجُـومُ
كَـذَاكَ قُلُـوبُ أَرْبَـابِ التجَلـي ... يُـرَى فِـي صَـفْوِهَا اللهُ العَظِـيمُ

فإن أظفرك الله تعالى بواحد منهم، فاشدُدْ عليه يدك، فهو الكنز المأمون، وبائعه بالدنيا بأَسرها مغبون، والعدة في البلاء، والثقة من الأخلاء، إن احتجت إليه أعطاك، وإن أصابك مكروه واساك، وإن دعا الله تعالى فلن ينساك!

ومن التوفيق للناشئ والمبتدئ أن يجالس صاحب سُنة واتباع، ورقة وإيمان، ويقين وإذعان.

قال ابن شوذب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من نعمة الله على الشاب إذا نَسكَ أن يؤاخي صاحب سُنة يحمله عليها»(١).

فإذا وجد الناشئ شعورًا إيمانيا غامرًا يملؤه بالعزة والكرامة والأَنَفة والشجاعة، والحرية والإباء، فليعلم أنه قد وضع قدمه على أول الطريق، فبالإيمان يعيش، وبه ينتعش، وبه يتحرك، وبه ينتصر، وبه يلقى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي (٣١).

البصيرة العاشرة
في أدب المؤمن

إن أدب المؤمن هو أدب القلوب والألسن والجوارح، فهو الأدب الذي يزين القلب بحفظ سر الإخلاص، ويزين اللسان فيحليه بالفضائل، ويخليه عن الرذائل، ويزين الجوارح بفعل المكارم، واجتناب المآثم، فالأدب زينة المؤمن وشعاره، وسَمْته وهديه، وسيرته وطريقته.

حقيقة الأدب:

الأدب عرفه علماؤنا الأدباء، فقالوا: «الأدب: هو استعمال ما يُحمد قولًا وفعلًا»[(١)]، فهو كلمة جامعة للأخذ بمحاسن الأخلاق، والأقوال، والأعمال، والبُعْد عن الرذائل، والسفاسف، والرعونات، وقد لاحظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى الجامع، فقال في تعريفه: «الأدب: اجتماع خصال الخير في العبد»[(٢)].

فالأدب يدخل في عامة أبواب الدين، فهو أدب مع الخالق قبل أن يكون مع الخَلق، وهو أدب في العبادات قبل أن يكون في المعاملات، بل لا ينفك العبد في

(١) فتح الباري، لابن حجر (١٠/ ٤٠٠).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٥٥).

حال من أحواله عن لزوم الأدب، فالأدبُ في الإسلام مرعيٌّ مع الأحكام والأشخاص، والأزمنة والأمكنة، والأحياء والأموات، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأدب هو الدين كله»[1]، فبالأدب يصلح اللسان وخطابه، والعمل وأجزاؤه، والقلب وأحواله.

فضائل الأدب:

إن الأدب هو عنوان السعادة في الدنيا قبل الآخرة، وهو شعار الفلاح والنجاح في الدارين، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدبُ المرء: عنوانُ سعادته وفلاحه، وقلةُ أدبه: عنوانُ شقاوته وبَوَاره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب!

فانظر إلى الأدب مع الوالدين، كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟!

والإخلال به مع الأم- تأويلًا وإقبالًا على الصلاة- كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته، وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟!

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر، كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟»[2].

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قصة الثلاثة الذين كانوا في الغار، وكيف كان أدب أحدهم مع والديه سببًا لنجاته، ورضا الله عنه، كما أشار إلى قصة جريج الراهب العابد الذي كاد أن يهلك لإخلاله بالأدب مع أُمه متأولًا.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٦٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وفي هذه البصيرة تطواف مع هاتين القصتين، واقتطاف لشيء من ثمراتهما وفوائدهما.

فضل لزوم الأدب من قصة أصحاب الغار:

أخرج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ...**»، ثم ذكر قصة صاحبيه حتى قال: «**فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ**»(١).

فانظر كيف كان الأدب مع الوالدين سببًا لتفريج الكرب، وتحصيل رضا الرب جل في علاه، بل وتأمل كيف كان هذا الداعي فقيهًا عالمًا بمراتب الأعمال، فكان أرجى عمل يدخر عند الله ثوابه هو حفظ أدبه مع والديه، وهذا الفهم موافق لما علمنا رسول الله ﷺ من بر الوالدين، وهو من أحب الأعمال إلى الله تعالى(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي هذا الحديث أدب آخر، وهو أعلى من الأدب الأول وأرفع، ألا وهو الأدب مع الله تعالى، وقد أرشد هذا الحديث إلى الأدب معه سبحانه من وجوه:

الأول: أدبهم مع الله تعالى باللجوء والفزع إليه سبحانه دون غيره.

قال ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هؤلاء الثلاثة لما اشتدت بهم الأزمة، لم يفزعوا إلى مخلوق بأن يقولوا: نحتال في قَلْع هذه الصخرة أو حفرها أو نقرها أو غير ذلك؛ بل فزعوا إلى الله تعالى، فكان عونه هو الأقرب الأرجى»(١).

الثاني: أدبهم مع الله تعالى في توسلهم بصالح أعمالهم، فلم يخرج دعاؤهم مخرج رؤية العمل، ولا التمنن به على الله، حيث قال الداعي: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ...**».

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناقلًا عن السبكي الكبير: «ليس في الحديث رؤية عمل بالكلية؛ لقول كل منهم: (إن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك)، فلم يعتقد أحد منهم في عمله الإخلاص، بل أحال أَمْره إلى الله، فإذا لم يجزموا بالإخلاص فيه مع كونه أحسن أعمالهم، فغيره أولى.

فيستفاد منه أن الذي يصلح في مثل هذا أن يعتقد الشخص تقصيره في نفسه، ويسيء الظن بها، ويبحث على كل واحد من عمله يظن أنه أخلص فيه، فيفوض أمره إلى الله، ويعلق الدعاء على علم الله به، فحينئذ يكون إذا دعا راجيًا للإجابة، خائفًا من الرد»(٢).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة (٤/ ٣٩).
(٢) فتح الباري (٦/ ٥١٠).

خطورة الإخلال بالأدب من قصة جريج العابد:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ المُومِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ.**

قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ البَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ.

فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي.

قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا...»[(١)].

فانظر كيف كان إخلال هذا العبد الصالح بالأدب مع أُمه سببًا لابتلائه في دينه بالنظر في وجوه الفواجر، ولتسلط الناس عليه بالخوض في عِرْضه، فاتهموه

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

بما هو منه بريء، وبالأذى في بدنه فضربوه، وبالإتلاف لماله فهدموا صومعته، فكان الإخلال بالأدب سببًا للبلاء والأذى في الدين والبدن والعِرض والمال، ولولا رحمة الله تعالى بهذا العبد، لهلك جراء ذلك.

كل هذا مع أنه لم يشتغل عن أُمه بمعصية، ولم يكن انشغاله عنها إلا على سبيل التأويل لا العناد والمكابرة!

يقول ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكانت هذه القصة جامعةً لفضل الوالدة، ولكونها أجيب دعاؤها في مثل الولد الصالح مع كونه لم يشتغل عنها بمنكر، ولا بمحرم، وإنما اشتغل بعبادة، فجرى في حقه هذا»(١).

إلا أن الله تعالى نجاه من كبوته بعد أن عرف خطأه، واستغفر ربه، ففيه بيان عظيم رحمة الله تعالى، ورفقه بعبده، فكما عاقبه بدعاء أُمه عليه، نجاه وأظهر كرامته بما كان من سابق عبادته وإخلاصه، وبما استدركه من توبة وإنابة، فكانت هذه القصة تجليًا لبعض آثار رحمة الله وعنايته، فأظهر بها كرامة الأُم على الله، ووجوب برها والأدب معها، وكذلك أظهر كرامة العابد إذا تاب إلى الله وأناب، وكان في كل ذلك لطف ورحمة وتأديب من الله تعالى لعباده.

يقول أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: (يا رب، أُمي وصلاتي) قول يدل على أن جريجًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان عابدًا، ولم يكن عالِمًا؛ إذ بأدنى فكرة يدرك أن صلاته كانت ندبًا، وإجابة أُمه كانت عليه واجبةً، فلا تعارض يوجب إشكالًا، فكان يجب عليه تخفيف صلاته، أو قطعها، وإجابة أُمه، لا سيما وقد تكرر مجيئها إليه، وتشوقها واحتياجها لمكالمته.

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة (٧/ ١٨٠، ١٨١).

وهذا كله يدل على تعين إجابته إياها، ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقباله على صلاته- ويَبعُد اختلاف الشرائع في وجوب بِر الوالدين- وعند ذلك دَعتْ عليه، فأجاب الله دعاءها؛ تأديبًا له، وإظهارًا لكرامتها، والظاهرُ من هذا الدعاء أن هذه المرأة كانت فاضلةً عالِمةً، ألا ترى كيف تحرزت في دعائها، فقالت: (اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات)، فقالت: (حتى ينظر)، ولم تقل غير ذلك، وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث: (ولو دعت عليه أن يفتن لفتن)، وهي أيضًا لو كظمت غيظها وصبرت، لكان ذلك الأولى بها، لكن لما علم الله تعالى صدق حالهما، لطف بهما، وأظهر مكانتهما عنده بما أظهر من كرامتهما»[(١)].

الأدب خير من كثير من العمل:

إذا كان الأدب من الدين بهذه المثابة، فهو- بلا شك- خير من كثير من العمل.

قال الإمام القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن موقع الأدب من العمل، وبيان أنه مقدم الرتبة: «واعلم أن قليلَ الأدب خير من كثير من العمل؛ ولذلك هلك إبليس، وضاع أكثر عمله بقلة أدبه، فنسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة، ولذلك قال رويم لابنه: (يا بُني، اجعل عملك مِلْحًا، وأدبك دقيقًا)، أي: ليكن استكثارك من الأدب أكثر من استكثارك من العمل؛ لكثرة جدواه، ونفاسة معناه»[(٢)].

فكثيرُ الأدب مع قليل من العمل الصالح خير من كثير العمل مع قلة الأدب، فالعامل بغير أدب قد يحبط عمله، ويضل سعيه بما يدخل عليه من أمراض القلوب بسبب قلة أدبه مع الله، ومع الناس، أما صاحب الأدب فبتواضعه لربه،

---

(١) المفهم، للقرطبي (٦/ ٥١٢، ٥١٣).

(٢) الفروق، للقرافي (٤/ ٢٧٢، ٢٧٣).

وحسن خلقه، يبارك ثوابه، ويضاعف أجره، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن المُؤْمِنَ يُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ، صَائِمِ النَّهَارِ**»[١].

الأدب سياج السنن:

الأدبُ هو الذي به تُحفظ السنن، فهو كالسياج يحفظ السنة ويحميها، كما أن السنن سياج للفرائض، وفي ذلك يقول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن تهاون بالأدب، عوقب بحرمان السنن، ومَن تهاون بالسنن، عوقب بحرمان الفرائض، ومَن تهاون بالفرائض، عوقب بحرمان المعرفة»[٢].

الأدب عزُّ الدنيا:

العون لمن لا عون له هو الأدب، فالأدب يُثمر الشرف وإن كان صاحبه دَنيًّا، ويورث العز وإن كان صاحبه مهينًا، والقُربَ وإن كان صاحبه قصيًّا، والغنى وإن كان صاحبه فقيرًا، والنبل وإن كان صاحبه حقيرًا، والمهابة وإن كان صاحبه ضعيفًا.

فشرفُ الأدب وعزه أعلى وأرفع من العز المكتسب بالأموال والأنساب، تقول العرب: «مَن نهض به أدبُه، لم يقعد به حَسَبُه»، وقد عبر عن ذلك أبو العتاهية، فقال[٣]:

كُنِ ابْـنَ مَـنْ شِـئْتَ وَاكْتَسِـبْ أدبًـا ... يُغْنِيـك محمـودُهُ عَـنِ النَّسَـبِ[٤]

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٥٥)، وأبو داود (٤٧٩٨) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

(٢) ذم الكلام وأهله، للهروي (١٠١٥).

(٣) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (٢/ ٣١٢).

(٤) تروى هذه الكلمة بالسين، كما في محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني (ص٤٨)، وهو النسب المعروف، وتروى بالشين المعجمة كما في جمهرة الأمثال (٢/ ٣١٢)، و«**النشب**»: هو المال والعقار. الصحاح، للجوهري (١/ ٢٢٤).

ناهيك من شرف الأدب أن أهله متبوعون، وأن الناس تحت راياتهم، فيعطف ربك عليهم قلوبًا لا تعطفها الأرحام، وتجتمع بهم كلمة لا تأتلف بالغَلبة، وتُبذل دونهم مُهج النفوس، وإن لم يكونوا من ذوي الشرط والأعوان، ولا المال والسلطان.

كان عطاء بن أبي رباح مفتي مكة، وكان عالمها المقدم من التابعين، مفتيًا بحضرة الصحابة الكرام، ومع هذا كان عبدًا أسود، لكن رفعه الله بالعلم والأدب.

رُوي أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأُموي جاء هو وابناه إلى عطاء؛ ليسألوه عن أحكام المناسك، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول إليهم قفاه، ثم قال سليمان لابنيه: قُوما، فقاما، فقال: «يا بَني، لا تَنِيَا في طلب العلم؛ فإني لا أنسى ذُلنا بين يدي هذا العبد الأسود»[1].

ووقع في زمان هارون الرشيد أَنْ قدم عبد الله بن المبارك الرقَّة، فانجفل الناس خلفه، وتقطعت خلفه النعال من الزحام، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أُم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قالت: ما هذا؟ قالوا: عالِم من أهل خراسان قَدِم الرقة، يقال له: عبد الله بن المبارك، فقالت: «هذا- والله- المُلك، لا مُلك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَط وأعوان»[2].

وهكذا، فإن الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسَب، ومن ساء أدبه، ضاع نسبه!

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤٠/ ٣٧٥).
(٢) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١١/ ٣٩٣).

عناية السلف بالأدب:

لقد كان أسلافنا يحثون على اكتساب الأدب، ويأمرون به، ويُقدمون تحصيل الأدب على تحصيل كثير من العلم، ولهذا قال بعضهم: «نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث»[١].

ويقول الإمام ابن شهاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا نأتي العالِمَ، فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه»[٢].

وكانت أُم الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُلبسه أحسن الثياب، وتُعممه، وتأمره بالخروج إلى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن- شيخ المدينة في زمنه- وتقول له: «تأتي مجلس ربيعة، فتعلمْ من سمته وأدبه قبل أن تتعلم من حديثه وفهمه»[٣].

ولهذا، نقلت إلينا الروايات صورًا كثيرةً نَيرةً من أدب سلفنا الصالح؛ أدبهم مع الله تعالى ورسوله ﷺ، وأدبهم مع أهل العلم والدين، وأدبهم مع سائر الناس من العوام والخواص.

والمقام يضيق عن ذكر مواقفهم، أو تتبع آثارهم، ولكن نجتزئ من ذلك باليسير، فمنه أن العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سئل: مَن أكبَر، أنت أم رسول الله ﷺ؟ فقال: «هو أكبر مني، وأنا وُلدتُ قبله»[٤].

ومن أدب الطالب مع شيخه: ما وقع من الإمام مسلم بن الحجاج مع شيخه الإمام البخاري، حيث جاءه، فقبَّل بين عينيه، وقال له: «دعني أُقبِّل رجليك

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه من كلام مخلد بن الحسين (٢٤٥١).

(٢) حلية الأولياء، لابن أبي الدنيا (٣/ ٣٦٢).

(٣) مسند الموطأ، للجوهري (٣٣٠).

(٤) فضائل الصحابة، لأحمد (١٨٣١)، والمصنف، لابن أبي شيبة (٣٣٩٢١).

يا أستاذ الأستاذين، وسيد المُحدثين، وطبيب الحديث في عِلله...»[١] إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورضي عن أسلافنا الصالحين أجمعين.

فاللهم اعمر أوقاتنا بطاعتك، وزيِّن أعمالنا بالأدب في حضرتك، وأذِقْنا بَرْد عفوك ومغفرتك.

اللهم اجعلنا في حرزك وحفظك وجوارك، وتحت كنفك!

اللهم جنِّبْنا مضلَّات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، واغفر لنا ذنوبنا التي جنيناها في السر والعلن!

أمرتَنا فدعونا، فأجِبنا كما وعدتنا بفضلك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٥/ ١٢١).

البصيرة الحادية عشرة

في الدعوة إلى الله

إن من أعظم العبادات، وأجل المهمات: الدعوة إلى توحيد فاطر الأرض والسماوات، تلك وظيفة النبيين، وغاية خير خلق الله أجمعين.

وللدعوة إلى الله من الفضائل والفواضل في الأولى والآخرة ما لا يحيط به إلا الله.

ومن فضائل الدعوة إلى الله تعالى:

أ- الدعوة إلى الله أحسن الأقوال بعد التوحيد:

إن أحسن قول بعد شهادة الحق والإيمان هو الدعوة إلى دين ربنا الرحمن، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذه عامة في كل مَن دعا إلى خير، وهو في

نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك»[١].

فهي دعوة الإيمان، وهي دعوة للإيمان، وهي دعوة إلى الرب الرحمن، سبحانه جل في علاه.

ب- الدعوة إلى الله أحسن الأعمال:

وكما أن الدعوة إلى الله هي أحسن الأقوال، فعملها هو أحسن الأعمال، والقائمون بها هم أفضل الخَلق عند الله تعالى، فحقيقةُ الدعوة إلى الله وراثةُ النبي ﷺ في أمته، والقيام فيها بمهمته.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أفضل منازل الخلق عند الله: منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفي من الملائكة رسلًا، ومن الناس، وكيف لا يكون أفضل الخَلق عند الله مَنْ جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وجعل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم بأنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم للضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأَخذهم على يد الظالم، وأَمْرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمؤمنين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين»[٢]. انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٩).

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ٧٨).

ج- الدعوة إلى الله سبيل النبي ﷺ وأتباعه:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقَلين- الإنس والجن- آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقه، ومسلكه، وسُنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يكون من أتباع الرسول على الحقيقة إلا مَنْ دعا إلى الله على بصيرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، فقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تفسير لـ «سبيله» التي هو عليها، فسبيله وسبيل أتباعه الدعوة إلى الله، فمن لم يدعُ إلى الله، فليس على سبيله»[1].

وجوب الدعوة إلى الله تعالى:

أدلة وجوب الدعوة إلى الله تعالى كثيرة، قال تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧]، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص:٨٧].

فقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: إلى دينه والإيمان به، وإلى عبادته والإخلاصِ له.

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

«فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ، وهم أمته، وقد وصفهم الله

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٢١).

بذلك؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فهذه في حقه ﷺ، وفي حقهم قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران:١١٠]، وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [التوبة:٧١]، وهذا الواجبُ واجب على مجموع الأمة، وهو فرض كفاية، يسقط عن البعض بالبعض؛ كقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الآية [آل عمران:١٠٤]، فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة، فبهذا إجماعهم حُجة، وإذا تنازعوا في شيء ردوه إلى الله ورسوله»(١).

إذًا، كل واحد من هذه الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره، سقط عنه، وما عجز، لم يُطالَب به.

فلكل مسلم نصيبه من الدعوة إلى الله؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال في كتابه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، فكل يدعو إلى ربه بحَسَب قدرته واستطاعته.

سعة الدعوة وشمولها:

الدعوة إلى الله تعالى تشمل الدعوة إلى سائر شرائع الإسلام وشعائره، فهي دعوة إلى العقيدة والتوحيد، وإلى العبادة والتزكية، وإلى التضحية والجهاد، فلا تقتصر على جانب دون جانب، فهي دعوة إلى الإسلام كله، كما قال نبينا ﷺ لهرقل: «**فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٢٠/ ٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أَخْبروا به، وبطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمَّن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، والدعوة إلى أن يعبد العبدُ ربَّه كأنه يراه»(١).

ومن الدعوة إلى الله تعالى: الدعوة إلى ما يحبه، والنهي عما يبغضه، وهذه الدعوة تكون بالفعل قبل القول، وبالقدوة قبل الموعظة.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «ومن المحبة- أي: محبة الله- الدعوة إلى الله، وهي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أَخبروا به، وطاعتهم بما أَمَروا به، فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى، وما أبغضه الله ورسوله فمن الدعوة إلى الله النهي عنه، ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله، ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة... وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»(٢).

والدعوةُ إلى الله عبادة شريفة، ورتبة مُنيفة، فلا بد لها من منهاج تسير عليه، ومن طريق تمضي فيه، ألا وهو منهاج الإيمان، وطريق الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٥/ ١٥٨).
(٢) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٢٠/ ٧، ٨).

من ركائز الاهتداء في دعوة الأنبياء:

الركيزة الأولى: ربانية الدعوة:

فهي دعوة ربانية في غايتها، أي: ذات غاية ربانية، لا غاية دنيوية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ:٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود:٢٩].

وهي ربانية في منهجها ودستورها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

وهي ربانية- أيضًا- في وسائلها وأساليبها وآثارها على الداعي قبل المدعو.

والدعوة إلى الله إذا كانت ربانيةً، فهي ترتقي بالدعاة في مراتب الهدى والفضل والعلى، حتى قرن الله الربانيين بالأنبياء، فقال في كتابه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤].

إن الدعوة الربانية تُزين أهلها بزينة الإخلاص الذي هو شرط قبول الطاعات، وما كان في صغير إلا عظمه، ولا نُزع من كبير إلا حَقره.

قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ [الأعراف:٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر:١٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

الركيزة الثانية: الإيمان والتوحيد:

الإيمان بالله وتوحيده هو موضوع الدعوة، وأهم مطلوب فيها، وأعظم مقصود؛ إذ هو غاية خَلق الخلق أجمعين، وأصل دعوة الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف:٣٨].

فالتوحيدُ أولُ ما يخاطب به الناس من أمر الدين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

ذلك أن التوحيد سبب النجاة في الدنيا والآخرة:

أما في الآخرة؛ فلأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

والمعنى: لئن أشركت بالله شيئًا يا محمد، ليبطلن عملك، ولا تنال به ثوابًا، ولا تدرك جزاءً إلا جزاء مَن أشرك بالله، فاحذر أن تُشرك بالله شيئًا فتهلك، ومعنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]: ولتكونن من الهالكين بالإشراك بالله إنْ أشركتَ به شيئًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

وأمَّا في الدنيا، فبالنجاة من البدع والافتراق الذي هو نوع من العذاب في هذه الحياة، والتوحيدُ كذلك سبب لتفريج الكروب، والنجاة من مصائب الدنيا وبلياتها، وقد أدرك هذه الحقيقة أولياءُ الله، وكثير من أعدائه، فإن أعداءه إذا مسهم الضر في البَر والبحر، فزعُوا إلى توحيده، وتبرءوا مِن شِرْكهم، ودعوا الله مُخْلِصين له الدين، كما أثبت القرآن في غير ما آية.

أما أولياء الله، فالتوحيد مفزعهم في شدائد الدنيا والآخرة؛ ولهذا كانت دعوات المَكْرُوب: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمُ**»[1]، وكانت دعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرَّج اللهُ كربَه: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٦).

كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وعمل الدعاة هو تمحيص التوحيد، وتمحيض الإيمان عن شوائب الشرك والعصيان، وتحقيق العبودية أداءً للفرض، وعمارةً للأرض على مراد الله تعالى، فليس في الوجود إلا رب معبود، وإله مقصود، وعبد مربوب يأخذ عن الله وحده، ويتوجه إلى الله وحده، ويجرد قلبه وعمله لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، فهذا توحيد المعبود لا شريك له.

الركيزة الثالثة: اتباع الوحي:

من معالم الدعوة الراشدة: أن تقوم على منهج الاتباع والاقتداء والاهتداء، فكما هي ربانية تقيم التوحيد والإيمان، فهي- أيضًا- تتبع مسلك النبي العدنان صلوات الله وسلامه عليه.

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

فيأتي توحيد المتبوع بعد توحيد المعبود، فالاتباع شرط القبول بعد تجريد الإخلاص، وحقيقته: تصديق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر وحذر، وأن يعمل المسلم كعمله صلى الله عليه وآله؛ لأنه مأمور باتباعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

والاتباع في شأن الدعوات أمر واجب، وحتم لازم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فلا بد- إذًا- من حذر أن يقع شيء من اتباع الهوى، أو من زلات العلماء، أو القول على الله ﷻ في دين المسلم بغير علم مع الحرص على الاجتماع على الاتباع.

الركيزة الرابعة: العلم:

ومن المعالم المهمة أيضًا: العلم، ولا يتأتى اتباع إلا بالعلم، فهو النبراس والأساس.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد، وأجلَّها، وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعوه به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدٍّ يصل إليه السعي»[١]، ومعنى هذا: ألا يسعى الداعية بدعوته في طريق إلا وقد حصل من العلم ما يكشف له غوامض هذا الطريق وغوائله، وأحكام الله فيه، ولا يُقدم على عمل إلا على علم وبصيرة.

والعلم سبيل الوحدة والألفة، وطريق جمع الكلمة، ولا بد للعلم حتى يؤتي ثماره من تصحيح النية، والتحلي بصفات الربانيين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

ولا بد من علم بمقاصد الشريعة، وقواعدها، واهتمام بنوازل الدعوة، وأحكامها، ومعرفة بالسنن الإلهية في المجتمعات البشرية مع الانتفاع بعلماء الآخرة، والأخذ عنهم، والإحاطة بهم، والصدور عن فتاويهم.

وللدعوة ركائز أُخَر، وقواعد مهمة، حري بالداعية أن يطلبها في مظانها من كتب الدعوة وأصولها.

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يُعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعل علمنا حجةً لنا لا علينا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ١٥٤).

البصيرة الثانية عشرة

في الفهم والوعي

الوعي هو: حالة من اليقظة تقتضي فَهم الواقع بأبعاده، وإدراك ما يدور فيه، واطلاعًا على حقيقة الأحداث ومدلولاتها، وتفكيك القضايا الواقعية المعقدة إلى عناصرها الأولية، وإعادة ربطها وتجميعها في محاولة لإدراك الكل، كما يعني هذا الفهم الواعي استعدادًا للتفاعل الصحيح مع هذه الأحداث والوقائع نظريًّا وعمليًّا.

إن هذا الوعي يستدعي بحثًا في العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار والمكائد العالمية والإقليمية المُوجهة ضد الأمة.

كما أن هذا الوعي يقوم على أساس من إدراك سنن الله الجارية في الكون والحياة، وما بينه لعباده في الكتاب والسنة من طبائع البشر وأحوالهم، وما حُذرت منه الأمة من الفتن والمحن ومكائد الأعداء، وإن لبسوا ثياب الأصدقاء!

وهذا الوعي إنما هو بالسبل المشروعة لاستبانة سبيل المجرمين، وغايته: حماية الدعوة والدين من كيد المبطلين!

وكما أن العلم بالخير من أسباب فِعلِهِ، فإن العلم بالشر من أسباب منعِهِ، وعليه فإن الدعوة والدعاة إلى الله في هذا العصر - خاصةً- لا غنى بهم عن إدراك الواقع، وفهم علاقاته، واستيعاب أحداثه، كما أنه لا بد من معرفة الحكم الشرعي،

وتحصيل أدواته وآلاته، ومعرفة طرق استثماره واستنباطه.

تأصيل الوعي بالواقع، ورعاية المآلات في القرآن والسُّنة من خلال الأمثلة:

أ. النهي عن سبِّ آلهة المشركين إذا أدى ذلك لسبِّهم الله تعالى:

لقد نهى الله تعالى المؤمنين عن سب آلهة المشركين يوم أن كانوا بمكة، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام:١٠٨].

والآية خطاب للمؤمنين وللنبي ﷺ، وحكمُها على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة، وخيف أن يُسب الإسلام، أو النبي ﷺ، أو الله ﷻ، فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم، ولا صُلْبانهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لنكارة مآلات هذه الأعمال، وعظم مفاسدها.

ب. تَرْك قَتْل المنافقين:

ونهى النبي ﷺ عن قتل المنافقين، فعن جابر رضي الله عنه قال: «كنا في غزاة، فكَسَع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟** قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: **دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**، فسمع بذلك عبد الله بن أُبَي، فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنهُ كان يَقتُلُ أصحابهُ**»[١].

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

وفي هذا الكلام باب عظيم من سياسة أمر الدين، والنظر في عواقب أموره، وذلك أن الناس إنما يدخلون في الدين ظاهرًا، ولا سبيل إلى معرفة ما في نفوسهم، فلو عُوقب المنافق على باطن كفره، وظاهرُ حاله الإسلام، لوجد أعداءُ الدين سبيلًا إلى تنفير الناس عن الدخول فيه، والقبول له بأن يقولوا لإخوانهم وذويهم: ما يؤمنكم إذا دخلتم في دين هذا النبي، وأنتم مؤمنون به، ومخلصون له أن يدعي عليكم كُفْرَ الباطن، وجَحْد السريرة، وأن يقول لكم: قد أُوحي إلي في أمركم، وجاءني الخبر عن سركم أنكم منافقون، فيستبيح بذلك دماءكم وأموالكم، فلا تُغرروا بأنفسكم، ولا تسلموها للهلاك، فيكون ذلك سببًا لنفور الناس عن الدين، وزهادتهم فيه!

ج. ترك إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم:

وانتهى النبي ﷺ عن هدم الكعبة، وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم، فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الكَعْبَةَ**»(١).

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألتُ النبي ﷺ عن الجَدْر، أَمِنَ البيت هو؟ قال: «**نَعَمْ**، قلت: فما لهم لم يُدخلوه في البيت؟ قال: **إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ**، قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: **فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ؛ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا، وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ**

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٣).

أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ»(١).

كل ذلك لما فيه من الحكمة البالغة، ولما يترتب على فعل هذا من المفسدة العظيمة.

د. إمضاء صلح الحديبية:

ولقد أمضى النبي ﷺ صلح الحديبية بشروطه وإنْ رأى بعض كبار الصحابة فيه إجحافًا! فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية، كتب علي بن أبي طالب بينهم كتابًا، فكتب: محمد رسول الله، فقال المشركون: لا تكتب: محمد رسول الله، لو كنتَ رسولًا لم نقاتلك، فقال لعلي: **امْحُهُ**، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بِجُلُبانِ السلاح(٢)...»(٣).

وفي رواية أخرى عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أُحصر النبي ﷺ عند البيت، صالحه أهل مكة على أن يدخلها، فيقيم بها ثلاثًا، ولا يدخلها إلا بجُلُبان السلاح؛ السيف وقِرابه، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحدًا يمكث بها ممن كان معه، قال لعلي: **اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**، فقال له المشركون: لو نعلم إنك رسول الله، تابعناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فأمر عليًّا أن يمحاها، فقال علي: لا والله، لا أمحاها، فقال رسول الله ﷺ: **أَرِنِي مَكَانَهَا**، فأراه مكانها فمحاها، وكتب ابن عبد الله، فأقام بها ثلاثة أيام، فلما أنْ كان يوم الثالث، قالوا لعلي: هذا آخر يوم من شرط صاحبك،

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣).

(٢) قال شعبة كما في رواية مسلم: «قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: القِراب وما فيه».

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣).

فَأمره فليخرج، فأخبره بذلك، فقال: **نَعَمْ**، فخرج»[١].

هـ. إعطاء المُؤلَّفة قلوبهم:

ويعطي النبي ﷺ بعض المؤلفة قلوبهم العطايا العظيمة من الغنائم، وربما ترك مَن هو أولى منهم، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ**»[٢].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَعث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ بذُهيبة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعي، وعُيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن عُلاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: **إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ**»[٣].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن أناسًا من الأنصار قالوا يوم حُنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطَفِقَ رسول الله ﷺ يعطي رجالًا من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس بن مالك: فحدث ذلك رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبة من أُدم، فلما اجتمعوا، جاءهم رسول الله ﷺ، فقال: **مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟** فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٤).

فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، فقالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا»[1].

ومُدَاراة بعض الناس لمصلحةٍ:

ويُدَاري النبيُّ ﷺ بعضَ القوم؛ لما يترتب على ذلك من المصلحة العظمى في الدين، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: **ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، أَوِ ابْنُ العَشِيرَةِ**، فلما دخل، أَلَانَ له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلتَ الذي قلتَ، ثم ألنتَ له الكلام؟ قال: **أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ** - أو: **وَدَعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[2].

فمن المتقرر عند أهل العلم: وجوب تقدير المصالح والمفاسد في الأمر المطروح قبل الإفتاء فيه، والعمل على تحصيل أعلى المصلحتين، ودفع أعظم المفسدتين عند التزاحم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشَّرِّ، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين، وشرَّ الشَّرَّين»[3].

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الشريعة مبناها على الحِكَم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحُ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألةٍ خرجت عن العدل إلى الجَور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).
(٣) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٢٠/ ٥٤).

المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»[١].

ويقول الشاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التكاليف مشروعة لمصالح العباد، ومصالح العباد إما دنيوية، وإما أُخروية»[٢].

ويقول أيضًا: «إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معًا»[٣].

وفي ذلك دليلٌ ظاهرٌ على أهمية معرفة الواقع في الخلق، والواجب في الشرع، سواء بسواء.

من معالم أهمية الوعي بالواقع:

أ- أهمية الإحاطة بواقع الحال في الفتوى:

إن الفتاوى في نوازل الأُمة تحتاج حتى تسدد إلى إحاطة ومعرفة عَبْر خبرة بمستجدات هذا الواقع، والفتوى ربما اضطربت بسبب تفاوت في توصيف الواقع وتكييفه، وقد أشار أهل العلم سلفًا وخلفًا إلى أهمية فهم واقع المسألة مع فهم النصوص الشرعية المتعلقة بها، وأشاروا إلى فقه تنزيل النصوص على الواقع.

وبهذين الركنين يتم تسديد الفتوى، وتنضبط الأحكام، فلا يبقى مجال لطعنِ طاعن، ولا لأخطاء فادحة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم- أي: بالحق- إلا بنوعين من الفَهم:

(١) أعلام الموقعين، لابن القيم (٤/ ٣٣٧).

(٢) الموافقات، للشاطبي (٤/ ١٩٥).

(٣) الموافقات، للشاطبي (٤/ ١٩٥).

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن، والأمارات، والعلامات، حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمَنْ بذل جهده، واستفرغ وسعه في ذلك، لم يَعْدُ أجرين أو أجرًا، فالعالِم مَن يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»(١).

ولأجل التحقق بهذين الشرطين لا تزال فتاوى كثير من علمائنا المتقدمين حيةً حاضرةً في واقع الحياة؛ وما ذلك إلا لحسن فهم العالم وفقهه في الواقع، وفي الشرع معًا.

ب- أهمية البصيرة بالواقع في التصدي لأعداء الأمة:

وفي فهم هذا الواقع استبانة سبيل المجرمين، وتعرية مناهج المنحرفين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بين ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

والقرآن قد فاضت آياته بفضح المنافقين، وكشف كيد الكائدين، ووقائعُ السيرة وأحاديثُ السنة قد تواتر فيها هذا المعنى.

والدعوة إلى الله وهي تستجلي سبيل المؤمنين لا غنى لها من خلال إدراك الواقع عن استبانة السبل المخالفة لهذا السبيل؛ ولذلك لا بد من وعي وإدراك لما يُحاك لأهل الإسلام في الزمان والمكان.

وحين وقع تقصير في هذا الباب حديثًا؛ وَرَدَ الناسُ مواردَ بلاء غابت عافيته، وطالت شدته، وعمت معاناته القاصي والداني، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/ ١٦٥).

ج- أهمية البصيرة بالواقع في تربية الأجيال:

ثم إن الوعي بالواقع والفهم له، مطلوب لتحصيل التكامل والتوازن في تربية الأجيال، فالوعي بالواقع سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا لَبِنة أساسية في بناء الشخصية المسلمة في هذا الزمان، وفي كل زمان.

ولا يسوغ بحال أن يربى المسلم علميًّا وفكريًّا، ثم يُهمل في الجوانب العملية والواقعية، وعن هذا الخلل التربوي تنشأ آفات علمية وعملية.

فمن انشغال فكر المسلم بقضايا ليست مطروحةً تحت سمع وبصر الزمان والمكان، واستدعاء قضايا ومشكلات تاريخية انقضت ظروفها، واضمحلت أصولها، إلى حجز العقل المسلم، وسد منابع الثقافة المعاصرة عليه، إلى تعويق السعي للتمكين، والتسبب في بقاء أهل العلم والدعوة في الأمة في عزلة عن شؤونها السياسية والاجتماعية، إلى سقوط الأمة في هُوة التبعية الاقتصادية والتقنية، وأخيرًا تدمير كثير من مقدراتها، واستلاب مزيد من أرضها!

كل ذلك لا يعدو أن يكون من سلبيات عدم إدراك ما نحن فيه من سياقات عدائية! وما نحن عليه من تخلف عن إدراك الواجب حيال الواقع المعاصر لأمتنا بمختلف مكوناتها، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠].

د- أهمية البصيرة بالواقع لحُسن التفاعل مع الحاضر، واستشراف المستقبل:

إن التفاعل الصحيح مع قضايا المسلمين اليوم، إنما هو ثمرة لحُسن الفهم والإدراك للواقع ومستجداته.

كما أن حسن الفهم والإدراك لِما يجري في هذه الأمة يُمكن من الاستشراف المبكر للأحداث، والتفاعل الإيجابي السريع مع مستجدات الواقع الذي نعيشه،

ومتطلبات هذه الدعوة، وهذا يُعين على أَخْذ الأُهْبة، والتوقي من الفتن والمعاطب.

كما أن إدراك العالم والداعية للواقع بأبعاده وتحدياته، يملؤه حماسًا وقوةً في حمل قضايا الدعوة بهمة عالية، وعزم قوي، لا يُثنيه عنه كثرة خصومه مهما تكالبت عليه قوى الشر؛ إذ الأمرُ كما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن الصفوة أقوام مُذْ تيقظوا ما ناموا، ومُذْ سلكوا ما وقفوا، فَهِمَمُهم صعود وترق، كلما عبروا مقامًا إلى مقام، رأوا نقصَ ما هُمْ فيه، فاستغفروا»[1]، فلم يتركوا بابًا لنصرة قضيتهم إلا وَلَجوه، ولا رأوا عدوا لدعوتهم إلا واجهوه، ينصرون الحق، وينصحون الخلق!

المبالغة في الاهتمام بأمر الواقع ومخاطرها:

وفي مقابل ما ذُكِرَ من أهمية هذا الوعي، ونتائج إدراكه، فإن المبالغة في الاشتغال به، وتضخيم أهميته، وتعظيم أثره في تغير الفتوى، والمغالاة في تناوله، كل هذا يمثل سلبيات ومحاذير يجب الانتباه إليها.

فَلا بد من عِنَاية بالتأصيل الشرعي، وإغفالُ التأصيل الشرعي وقوع في فخ منصوب لهؤلاء الذين يَسعون إلى فَهم واقعهم، لكنهم لا ينطلقون في التفاعل معه إلا من ميزان المصالح الدنيوية، والنظريات السياسية لا من حكم الشارع وأمره ونهيه.

ومن هذه الشراك أيضًا: الافتتانُ بالبهرج والزيف؛ سواء كان هذا بشخصيات أو بأفكار منحرفة، أو بطوائف ضالة، أو بأساليب ووسائل غير شرعية، وما يَصحب ذلك من اختلال في ميزان الحب في الله، والبغض في الله، وما قد يرافقه من

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص٣٦٦، ٣٦٧).

التعويل على الأسباب والوسائل المادية، وإغفال الجوانب الإيمانية والمعنوية.

ومن الناس من يجنح بالدعوة إلى الله، فتخرج عن مسارها الأصيل لتأخذ طابع كفاح سياسي، أو ثورة وطنية، أو معركة حزبية مع غلبة الخطاب بهذا، والاقتصار عليه، وهذا يعني ذبول الجانب الإيماني التربوي العلمي الرصين، واضمحلال جانب التقرب إلى الله ﷻ بعبادة الدعوة وسيلةً ومقصدًا، وهو ما قد يُتيح الفرصة للهجوم على الإسلام، أو لتشويه الدعوة، وضياع هويتها!

ومن هذه السلبيات والمحاذير: أن ينعزل هذا الإنسان عن الأمة بحُجة تخلف العامة عن الوعي المطلوب، ذلك أن الإدراك المطلوب للواقع هو التدبر في أحداث ومواقفَ ومستجدات؛ لينشأ عن ذلك عمل رشيد في حقل الإصلاح والدعوة، فإذا عاد الوعي بعزلة ومفارقة ومفاصلة بين الداعي وأمته، وبين الدعاة والعلماء وجمهرة المسلمين، فقَد أتى هذا الوعي بنقيض مقصوده، وكَرَّ الفرع على أصله بالإبطال، وذلك من أكبر الباطل، وأضر الأخطار.

فلَا بد من الاقتصاد في ذلك كله، ولزوم منهج العدل، والتوسط، والتوكل على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو ضمانة الوعي والاستمرار.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعل ما علمنا حجةً لنا لا علينا، وأن يعيذنا من فتنة القول والعمل، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

البصيرة الثالثة عشرة

في نعمة الذرية

الذرية نعمة من رب البرية! وقد امتن الله بالذرية على الأنبياء، فسألوا الله أن يهب لهم الذرية الطيبة، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

عظم نعمة الذُّريَّة، ووجوب شكرها:

أيها الأب الكريم! الذرية نعمة من الله ﷻ، فأدِّ حقها، وأدِّ شكرها.

وقد قال سبحانه مُعددًا نعمه على عباده: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:٧٢].

وقد اختلف في تفسير «الحفدة»، فقيل: الأولاد، وقيل: البنات، وقيل: الأَخْتَان، وقيل: الأصهار، وقيل: الأعوان. وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين، ومَنْ يعاون على ما يُحتاج إليه بسرعة وطاعة[(١)].

(١) راجع: تفسير ابن جرير (١٤/ ٢٩٥ - ٣٠٤)، والنكت والعيون، للماوردي (٣/ ٢٠٢).

وتظهر قيمة هذه النعمة إذا حُرِمَها الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٥٠]، و«العقيم» كلمة تُطْلق على الذكر والأنثى، فالمرأةُ التي لا تلد عقيم، وكذلك الرجل الذي لا يُولَد له.

والحياة بدون أولاد وذرية حياة مظلمة كئيبة إلا من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالذرية من أجل النعم كما قال الشاعر:

نِعَمُ الإلَهِ عَلَى العِبَادِ كَثِيرَةٌ ... وَأَجَلُّهُنَّ نَجَابَةُ الأَوْلادِ[(١)]

والنعم حقها الشكر، ولقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣]، وإذا لم تشكر النعمة، أوشكت أن تنقلب على صاحبها بلاءً ونقمةً بسوء استقباله لها، وعدم شكره إياها، كما قال الآخر:

وَأَحسنُ مِن وجْه الصَّنِيعَةِ شُكْرُها ... وَأَقْبَحُ مِن حِرْمانِ نعمى جُحودُها[(٢)]

سبيل شكر نعمة الذرية:

هناك أمور ثلاثة يكون بها شكر نعمة الله على الولد:

الأمر الأول: التربية:

على الأب أن يؤدي حق ولده عليه، فللولد على أبيه حق كما أن للأب على ولده حقًّا، وقد بين رسول الله ﷺ هذا الحق في أحاديث، منها قوله ﷺ: «**إن مِنْ حَقِّ الوَلَدِ عَلَى الوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ**»[(٣)].

---

(١) طبائع النساء، لابن عبد ربه (١/ ٨٩).

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي (٢/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه البزار (٨٥٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرج البيهقي نحوه في شعب الإيمان (٨٣٠٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وإحسان الأدب يكون أولًا بتربية الولد على كتاب الله تعالى، وسُنة نَبيه ﷺ، ففي الحديث: «**حَقُّ الوَلَدِ عَلَى الوَالِدِ أَنْ يُعَلِّمَهُ الكِتَابَ**»، قال عثمان بن عبد الرحمن أحد رواة الحديث: «كتاب الله ﷻ»[(١)].

إن تربية الأولاد لا تقف عند كونها حقًّا للولد فقط، بل هي قبل ذلك وبعده عبادة لله، وامتثال لأمره جل في علاه، فقد أمر الله المؤمنين بتربية أهليهم أمر إيجاب، فقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

قال عليٌّ رَضِوَاللَّهُعَنهُ في معنى الآية: «علموا أنفسكم وأهليكم الخير»[(٢)].

وعنه رَضِوَاللَّهُعَنهُ كذلك: «أدِّبوهم وعلِّموهم»[(٣)].

ولقد خصَّ الله تعالى أنبياءه بالأمر المؤكد ببذل الجهد، وحبس النفس على تربية أهليهم، وخص من جوانب التربية: التربية على إقامة الصلاة، يقول تعالى: ﴿**وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا**﴾ [طه:١٣٢]، ويقول سبحانه: ﴿**وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ**﴾ [الشعراء:٢١٤].

وبمثل هذا أمَر نبيُّنا ﷺ، فقال: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ**»[(٤)].

وقد أثنى الله تعالى على أنبيائه ورسله بعنايتهم بتربية أهليهم وأولادهم،

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١/ ١٨٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٥٤)، والحاكم في المستدرك (٣٨٢٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٣٣١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٠٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦٦٨٩)، وأبو داود (٤٩٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا.

فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]، فعبادة يمتدح الله بها أكرمَ خلقه عليه، هي- ولا شك- من أحب العبادات إليه ﷻ.

واشتغال الأنبياء الكرام بتربية أهليهم من الاشتغال بالأهم والأفضل، فأولى ما يعنى به الإنسان هو تكميل نفسه بالفضائل أولًا، ثم تكميل أقرب الناس إليه بعد ذلك.

فإذا أحسن الرجل اختيار أم ابنه، وأحسن اختيار اسمه، وأحسن أدبه وتربيته، وصبر على ذلك وبذل، كان قد شرع في شكر نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأوشك أن يبارك الله له في ذريته، ويجعلهم له قرة عين في الدنيا، وذخرًا يوم القيامة.

عناية السلف بالتربية:

وعلى هذا الهدي من العناية بتربية الأولاد، كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يُعلَّم الصبى الصلاة إذا عرف يمينَه من شمالِه»(١).

وكان زين العابدين على بن الحسين يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا، فقيل له: يصلون الصلاة لغير وقتها! فقال: «هذا خير من أن يناموا عنها»(٢).

وكذلك يُعود الصبى العبادة ليحصل له ولوالديه الأجر، أما أجر الصبى؛ فلقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تكتب للصغير حسناته، ولا تكتب عليه سيئاته»(٣)،

(١) المصنف، لابن أبي شيبة (٣٥٠٤).
(٢) المصنف، لابن أبي شيبة (٣٥١٣).
(٣) التمهيد، لابن عبد البر (١/ ١٠٦).

وأما أجر والديه؛ فلما أخرجه مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رَفعت امرأة صبيًّا لها، فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: **نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»(١).

وإنما يؤمر بذلك على وجه التعليم؛ ليعتاد العبادة، ويتمرن عليها، فتكون أسهل عليه بعد البلوغ، وكذلك يُجنب المنكرات، ويُنهى عن سائر المحظورات؛ لأنه لو لم يمنع منه في الصغر، لصعب عليه الامتناع في الكبر.

أهمية الرفق فى التربية:

إذا كان الوالد غاويًا جافيًا، معرضًا عن حسن تربية ولده، جره إلى القطيعة والعقوق، فتكون إساءة الوالد لولده سببًا في استخراج العقوق منه، فإن الطبع البشري يقتضى مقابلة الإساءة بالإساءة، وحينئذ يكون الوالد آثمًا بالإساءة إلى ولده؛ لأنه حمله على المعصية، وقد روي: «**رَحِمَ اللهُ وَالِدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ**، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **يَقْبَلُ إِحْسَانَهُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ إِسَاءَتِهِ**»(٢).

فرحم الله والدًا أعان ولده على بره بالإغضاء له عما لا يخلو عنه البشر، واستكثار بره وإن قل، وإحسان أخلاقه معه، وتوقيره إن بلغ سن من يوقر، ولقد رأينا كثيرًا من الآباء يُحمل ولده ما لا يطيقه، فيُلجئه إلى خلافه، ويعده عاقا، وهو الباحث عن حتفه بكفه، ولهذا يُدعى لمن أعان ولده على بره.

الأمر الثاني: تحرِّي الحلال في المكاسب:

الأب مأمور بتحري الحلال في مطعمه ومكسبه، وذلك لنفسه، وصلاح ولده! ففي الحديث عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ**

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٦).
(٢) الجامع، لابن وهب (١٣٨) مرسلًا.

الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، إِنهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»(١).

وفي الحديث الآخر: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِن اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾** [المؤمنون:٥١].

وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بالحَرَام، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»**(٢).

فنفس الإنسان تطيب بأكل الطيبات، وتخبث- عياذًا بالله- بأكل المحرمات، ومَن طابت نفسه تحركت إلى طاعة الله، ومَن خبثت نفسه تحركت إلى معصية الله، فالنفس الطيبة كالأرض الطيبة، تثمر صالح الأعمال، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

والشكوى من فساد الأولاد كثيرة، وما فساد الأولاد إلا لأسباب، وعلى رأسها: ترك تحري الآباء للحلال المحض فيما يدخل جوف الأبناء.

الأمر الثالث: القدوة:

إن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، فإن عُوِّد الخير

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٤٤١)، والترمذي (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعُلِّمه، نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وإن عُوِّد الشر وأُهمل إهمال البهائم، شقِي وهلك!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد، رأيت عامته من قِبَل الآباء!»(١).

وفي الحديث: «إن الله سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ»(٢)، فيا معشر الآباء والأمهات، أعدُّوا لسؤال الله جوابًا.

وفي الحديث أيضًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»(٣).

فمن النصح للأولاد: أن يكون الأب قدوةً صالحةً لهم؛ بل إن حسن الأدب وحسن القدوة والتربية هو خير ما يُقدِّمه الوالد لولده، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ نُحْلًا أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ»(٤).

ونشأة الصغير على الخير تجعله متطبعًا به، فإذا كبر كان فعل الخير له سجيةً لا يحتاج إلى كلفة ومشقة، أما من أهمل في الصغر، فإنه يعسر تأديبه في الكبر!

المبادرة بالقدوة والتربية:

إن الطفل يبدأ بالتقليد من السنة الثانية تقريبًا، ويبلغ غايته في السادسة، ويستمر التقليد معه إلى نهاية الطفولة، ولا يثمر التلقين ما لم تؤسس له القدوة.

---

(١) تحفة المودود، لابن القيم (ص٢٤٢).
(٢) السنن الكبرى، للنسائي (٩١٢٩)، وابن حبان (٤٤٩٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢) من حديث معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه أحمد (١٥٤٠٣)، والحاكم (٧٦٧٠٩) مرسلًا.

والواجب أن يؤخذ الصبيان بالأدب منذ الصغر؛ لأنهم أسلس قيادةً، وأحسن مواتاةً وقبولًا.

قال بعض الحكماء: «بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال، وتفرق البال».

وقال الشاعر[1]:

قد ينفعُ الأدبُ الأحداثَ في الصِّغَرِ ... وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الشَّيْبَةِ الأَدَبُ
إِنَّ الغُصُونَ إِذَا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَتْ ... وَلَا يَلِينُ إِذَا قَوَّمْتَهُ الخَشَبُ

وقال آخر[2]:

ويَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ
وَمَا دَانَ الفَتَى بحِجًا وَلَكِنْ ... يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

فللقدوة الصالحة أهمية كبرى في تربية الفرد، وتنشئته على أساس سليم، لا سيما في الفترة الأولى من حياة الإنسان حتى يبلغ مرحلة النضج.

فالطفل يكتسب منذ ولادته ألوان السلوك من خلال تقليده ومحاكاته للآخرين، ويتوقف ما يكتسبه الطفل من عادات مرغوب فيها، أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التي تَمثلها في نشأته.

فلذلك، كان أول سبيل إصلاح المتربى: صلاح حال المربى، كما قال بعض العرب لمعلم أولاده: «ليكن أول إصلاحك لولدي، إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت»[3].

---

(١) من شعر صالح عبد القدوس، حماسة البحتري (ص٣٧٣).
(٢) من شعر أبي العلاء المعري، اللزوميات (٢/ ٤١٣).
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ٢٧٢).

وتتجلى قيمة القدوة في حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يحكى قصة مبيته عند خالته أُم المؤمنين ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فيقول: «بت ليلةً عند خالتى ميمونة بنت الحارث، ورسول الله ﷺ عندها في ليلتها، فقام يُصلى من الليل، فقمتُ عن يساره لأصلى بصلاته، قال: فأخذ بذؤابة كانت لى -أو: برأسى- حتى جعلنى عن يمينه»(١).

هكذا يأخذ الصبى القدوة من والديه وأقاربه، وممن يخالطونه زمن الصغر، وهنا تكون للمدرس وللمربى مسؤولية عظيمة تجاه الصبى المتعلم.

مسؤولية الأم فى التربية:

التربية في المقام الأول مهمة الأسرة، والأم في القلب من هذه الأسرة، الأم التى إذا قامت بدورها أبرزت النوابغ، وأنهضت القمم الشوامخ.

فهذا الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حواري النبى ﷺ هو ثمرة تربية صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وأخت أسد الله حمزة.

ومن نسل الزبير: عبد الله وعروة والمنذر، وهم تربية أسماء بنت أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تربية فاطمة بنت مُحمد ﷺ.

ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أريب العرب وألمعيها تربية هند بنت عتبة، وهى التى قالت عن ابنها معاوية لما قيل لها: «إنه لخليق أن يسود قومه»، قالت: «ثَكِلْتُهُ إن لم يَسُد العربَ قاطبةً»(٢).

ونشأ الأوزاعى يتيمًا في حجر أمه، فقامت على تربيته حتى استفتى رَحِمَهُ اللَّهُ وله ثلاث عشرة سنة.

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨)، ومسلم (١٩٢).

(٢) الطبقات، لابن سعد (٥٧ - الجزء المتمم)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٩/ ٦٦).

والشافعي ربته أمه، وقامت عليه.

ومالك بن أنس ربته أمه، وقامت عليه.

والبخاري ربته أمه، وقامت عليه.

والثوري ربته أمه، وقامت عليه.

فلا غرو أن كان قلب التربية النابض، ومحورها الأساس هو الأم التى تستنبت في ولدها محاسن الأخلاق، وتستنهض همته لمعالى الأمور، كما نبت من رحمها، واغتذى من لبانها.

وبعد دور الأسرة، يأتي دور الشيخ والمربى والمعلم، فهذا الشيخ آق شمس الدين يُعلم ويربى محمد الفاتح حتى صار فاتح القسطنطينية، حتى إنه لما حاصرها وهو ابن سبع عشرة سنة قال: عن قريب سيكون لى في القسطنطينية عرش، أو يكون لى فيها قبر!

وهكذا تُربى الهمم، وهكذا تُفتَح المدن، فقد فتحها بعد أن حاصرها وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، بعد ثمانية قرون من الانتظار لوعد النبى ﷺ.

لقد كانت هذه بصائر إيمانية تأخذ بيد الأسرة نحو تربية أبنائها، ومن قبل نحو شكر نعمة ربها عليها.

فاللهم أصلح نياتنا وذرياتنا، وهب لنا من لدنك ذرية طيبة، إنك سميع الدعاء، ربنا اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا، ربنا وتقبل دعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

البصيرة الرابعة عشرة
في التربية والتزكية

التربية والتزكية وظيفة ومهمة من مهمات الرسل والأنبياء، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

مفهوم التربية والتزكية:

التزكية: هي التعبير القرآني لمصطلح التربية، وإن كان في معنى التربية من التعاهد والمتابعة للمتربي ما ليس في التزكية، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، فكأن التزكية هي ثمرة التربية، ولذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم؛ دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١، ١٥٢].

وتزكيةُ النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة، والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيُهُ من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم»(١).

فالتربية- إذًا- من أول أعمال الأنبياء والمرسلين وأَوْلاها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

صفحات من تربية النبي ﷺ لأصحابه:

وفي ممارسة النبي ﷺ للتربية مع أصحابه صفحات مشرقة، حق على كل داعية أن يطالعها مقتديًا ومهتديًا، ذلك أن التربية هي التي تُحول العقيدة المستكنة في الضمائر يقينًا إلى حقيقة سلوكية في الواقع، فترسخ معاني الألوهية في القلب؛ ليصبح يقينًا لا تزلزله محنة أو ابتلاء، كما لا تغيره نعمة ولا رخاء.

ومن هذه الصور: ما ثبت عن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: **يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**. قال: فما زالت تلك طِعْمتي بعد»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كنتُ خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: **يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ**

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[(١)].

وفي هذا الحديث من التربية والتزكية شيء كثير، فقوله: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، أي: اعمل له بالطاعة، ولا يراك في مخالفته، فإنك تجده تُجاهك في الشدائد.

وقوله ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»: أرشَدَه إلى التوكل على مولاه، وألا يتخذ إلهًا سواه، ولا يتعلق بغيره في جميع أموره؛ ما قل منها وما كثر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فبقدر ركون الإنسان إلى غير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله، فقد أعرض عن ربه، والتفت لمن لا يضره، ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله، وقد أكد النبي ﷺ ذلك، فقال: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ**»، وهذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان به واجب؛ خيره وشره، وإذا تيقن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به؟!

وقوله: «**رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»: هذا تأكيد -أيضًا- لما تقدم، أي: لا يكون خلاف ما ذكرت لك بنسخ، ولا تبديل.

وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، وتعميق الوعي، ولا يتحقق هذا إلا بعمل مستمر دائب، وعزم لا يلين، وليكن معلومًا أنه لا يصلح آخر هذا الأمة إلا بما صلح به أولُها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

أهمية التربية وضرورتها:

أ- التربية وقاية من الفتن:

وتتعاظم أهمية التربية؛ لأن الدعوة والدعاة يتعرضون فوق كل أرض، وتحت كل سماء لأنواع عديدة من الفتن بالخير، والشر، والرغبة، والرهبة، ولا يعصم- بإذن الله- من هذه الفتن إلا تربية تعظم أمر الآخرة، وتصغر شأن الدنيا، وتُؤْثِر ما يبقى على ما يَفنى، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤- ١٧].

ب- التربية سبيل التمكين:

حين نتأمل في قيمة التربية، ندرك أن التربية هي سبيل التمكين لهذا الدين؛ إذ لم تُرَ الأمة الإسلامية بحالة من الضعف كهذه الحالة اليوم، حين استبدلت شريعتها، واستوردت مناهجها، وسقطت في التبعية لأعدائها.

فالقيام بواجب التربية للناشئة، والتزكية للنفوس، هو في الحقيقة تهيئة للأمة للمطالبة بتحقيق وجودها، وتبليغ رسالتها، وتطبيق شرع ربها في هذه الحياة، ولذا فإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يهيئ لها فئات فذة، قادرة على البذل والعطاء، وعلى تحقيق الآمال، وعلى المرابطة على الثغور العلمية والعملية، وعلى حماية الدين من كَيْد الكائدين، وعبث العابثين، ليس فقط حماية الدين، بل حماية هذه الأوطان من كل ما يُهددها، ويكون فيه زعزعة أمنها واستقرارها.

وصفوة القول: إن الواجب التربوي هو طريق الخلاص، وأُس التمكين، وكثيرًا ما نعاني أنواعًا من الخلل، غير أن الخلل التربوي هو الداء الأصيل.

ج- التربية طريق تحقيق الأهداف:

كثيرًا ما يُرد الفشل في تحقيق الأهداف إلى أسباب داخلية، وعُمدة هذه الأسباب على التحقيق هو الخلل التربوي؛ إذ تارةً يكون الخلل بسبب ضعف

التربية، وعدم تدرجها، وعدم تكاملها، وتارةً أخرى بسبب عدم توازنها... وهكذا.

فالتربيةُ الجادة المتكاملة المنضبطة دِعامة لتحقيق الأهداف؛ سواء أكانت أهدافًا علمية أم عملية.

وقد عد الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمارات العالِم، فذكر منها: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأَخْذه عنهم، ولملازمته لهم، فهو الجدير أن يتصف بما اتصفوا به من ذلك[(١)].

وهكذا كان شأن السلف الصالح؛ فأولُ ذلك ملازمةُ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله ﷺ، وأَخْذهم بأقواله وأفعاله، وصار مثل ذلك أصلًا لمَن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى أثمرت هذه التربية رجالًا بلغوا ذروة الكمال الممكن في القيام بأمر الدين، علمًا وعملًا.

وعليه: يجب أن نعلم أن التربية كما هي وظيفة الوالدين، هي وظيفة المعلمين، وهي وظيفة الدعاة، وهي وظيفة العلماء، وهي وظيفة الإعلاميين، وهي وظيفة المؤثرين والمثقفين في مجتمعات المسلمين، فهي ضرورة دَعوية اجتماعية ثقافية لا بد منها، ولا غنى عنها، فهي التي تُنشئ أجيالًا، وتظهر كفاءات قادرة على صناعة المستقبل، وعلى القيام بالواجبات.

معالم التربية عند أهل السُّنة والجماعة:

وهذه التربية عند علماء أهل السنة والجماعة تقوم على معالم مهمة، يجب أن نُذكر بها:

منها الربانية: الربانية التي تعني تحققًا بحسن الصلة بالله تعالى؛ أداءً للفرائض، واجتنابًا للمحارم، واستدامةً لذِكْر الله، وتحليًا بالشكر والصبر، وتلذذًا بالصيام،

(١) الموافقات، للشاطبي (١/ ١٤٢).

وتنعمًا بالقيام.

فالربانية نسبة إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو المتأله العارف بربه، وهو الذي يقصد مراضي الله تعالى، ولا يعصيه، فهو في الجملة مَن حَسُنت صلته بربه حتى نسب إلى الله سبحانه.

وهكذا، فإن التربية تُقيم سِياجًا في قلب المتربي، وفرقانًا يُفرق به بين الحق والباطل، وتنشئ حاجزًا بينه وبين مُضلات الفتن، وتضبط سلوكه، وتقيم جوارحه على رعاية السنن، والهدي الظاهر، وحسن السمْت، وملازمة الأدب، ومعاملة الله تعالى في السر والعلن.

وإذا كان الإسلام هو الحل لمشاكل البشرية، فإن الربانيين هم الحل لمعظم مشكلات المجتمعات الإسلامية.

ثم هذه التربية تُوصَف بأنها: تربية تنضبط بكتاب ربنا، وسُنة نبينا ﷺ.

وتُوصَف بأنها إيجابية، فكما هي سلفية في منهجها، فهي إيجابية في عملها، تعنى بالمبادرة العملية على وجه السداد والمقاربة، فلا مثالية، ولا سلبية، بل منهج واقعي إيجابي يعنى بالقصد في الأمر كله، وبمراعاة أحوال الناس، وتحقيق الملاءمة والمواءمة بين طبيعة هذا الدين، وطبيعة المُكلفين.

ومن معالم التربية السنية: الوسطية التي هي سمة أهل السنة والجماعة، وسمة أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة:١٤٣].

والمربون السالكون على منهج أهل السنة وسط في هذا الباب بين مَن يُفرط فيه ومن يغالي، هم وسط بين أصحاب التفريط والاستهتار، وأصحاب الإفراط والتشدد في هذا الشأن، فلا إسراف في تنعيم الأبدان، ولا تنطع، ولا حرمان.

وفي الحديث: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ**

الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»[١]، أي: اقصدوا السداد واطلبوه، واعملوا به في الأمور.

والسدادُ: القصدُ فوق التفريط ودون الغلو، وهو من نحو معنى: قاربوا، أي: اقربوا من السداد والصواب، ولا تغلوا.

وفيه إشارة إلى أنَّ مَنْ دام على سَيره إلى الله مع الاقتصاد، بَلَغ، ومَنْ لم يقتصد بل بالغ وغلا، فربما انقطع في الطريق، ولم يبلغ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: «**إن هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ؛ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفَرًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[٢].

والمُنبَتُّ: هو المنقطعُ في سفره قبل وصوله، فلا سفرًا قطع، ولا ظهره- أي: راحلته- أبقى حتى يمكنه السير عليه بعد ذلك، بل هو كالمنقطع في المَفاوز، فهو إلى الهلاك أقرب، ولو أنه رَفق براحلته، واقتصد في سيره عليها، لَقطعت به سفره، وبلغ إلى المنزل، كما قال الحسن: «نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم، تبلغكم إلى ربكم ﷻ»[٣].

فميزان الأولويات لا يختل، ولا ينحرف، فأُولَى القربات الفرائضُ المكتوباتُ، وأما النوافلُ المندوباتُ فبحسَب الوُسع والطاقة، وأحب الأعمال إلى الله أَدومُها وَإنْ قلَّ، فلا يشدد الإنسان على نفسه، ولا يتفلت من طريق ومنهج التربية.

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣).

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي (٤٧٤٤).

(٣) فتح الباري، لابن رجب (١/ ١٥٣) بهذا اللفظ، وحلية الأولياء، لأبي نعيم (٦/ ٢٢٠) بلفظ: «الدنيا مطية المؤمن إلى ربه، عليها يرتحل المؤمن إلى ربه، فأصلحوا مطاياكم، تبلغكم إلى ربكم».

افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[١].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن النبي ﷺ كان يحتجر حصيرًا بالليل، فيصلي عليه، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ، فيُصَلون بصلاته حتى كثروا، فأقبل فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِن أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»[٢].

أي: اعملوا حسَب وُسعكم وطاقتكم؛ لئلا يتجاوزوا طاقتهم فيعجزوا، وإذا حُملوا ما لا يطيقونه، أوشك أن يتركوه أو بعضَه، فيصيروا في صورة ناقضي العهد، والراجعين عن عادة جميلة، وَاللائقُ بطالب الآخرة الترقي، وإلا فالبقاء على حاله؛ ولأنه إذا اعتاد من الطاعة بما يمكنه الدوام عليه، دخل فيها بانشراح واستلذاذ لها ونشاط، ولا يَلحقه ملل، ولا سآمة.

أنواع التربية ومجالاتها:

هذا، وللتربية أنواع، فنوع علمي، وآخر وجداني، وثالث جهادي، ورابع إيماني، ولها مستويات ومجالات، فمنها ما يُوجه للعامة، ومنها ما يُوجه للخاصة، ومنها ما يكون لتربية القادة، وَلكلٍّ وسائلُهُ، وهي أعم من الدرس والموعظة والصحبة والرحلة، وجوهرها: القدوة، ولها آفات يجب الحَذر منها حتى تؤتي أُكُلها، وتعود على أُمَّتنا بغاية النفع.

نسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يرزقنا تربية ربانية، نربي بها أنفسنا، ونربي بها مَن تحت أيدينا، إنه جواد كريم، بر رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦١).

البصيرة الخامسة عشرة
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات، وهو سبيل صيانة الحُرمات، وطريق تحقيق أمن المجتمعات.

والأمر بالمعروف: هو الإرشاد إلى المراشد المنجية، **والنهي عن المنكر**: هو الزجر عما لا يلائم في الشريعة، وقيل: **الأمر بالمعروف**: الدلالة على الخير، **والنهي عن المنكر**: المنع عن الشر، وقيل: **الأمر بالمعروف**: أمر بما يوافق الكتاب والسنة، **والنهي عن المنكر**: نهي عما تَميل إليه النفس والشهوة، وقيل: **الأمر بالمعروف**: الإشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أقوال العبد وأفعاله، **والنهي عن المنكر**: تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة، وهو ما لا يجوز في شرع الله تعالى.

فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوي بِساطه، وأُهْمل علمه وعمله، لَتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفَشَت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخَرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

وقد كان الذي خِفْنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم!

فَمَنْ سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة إما متكفلًا بعملها، أو متقلدًا لتنفيذها، مجددًا لهذه السنة الداثرة، ناهضًا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها، كان مستأثرًا من بين الخَلق بإحياء سُنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًّا بقُربة تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها»(١).

ويقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الباب أهم الأبواب، أو من أهمها؛ لكثرة النصوص الواردة فيه؛ لعظم موقعه، وشدة الاهتمام به، وكثرة تساهل أكثر الناس فيه»(٢).

واعلم أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يحمِل عليه: تارةً رجاءُ ثوابه، وتارةً خوفُ العقاب في تَرْكه، وتارةً الغضبُ لله على انتهاك محارمه، وتارةً النصيحةُ للمؤمنين والرحمة لهم، ورجاءُ إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارةً يحمل عليه إجلالُ الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يُطاع فلا يُعْصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: «وددتُ أن الخلق كلهم أطاعوا الله، وأن لحمي قُرض بالمقاريض»(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/ ٣٠٦).

(٢) الأذكار، للنووي (ص٣٣٠).

(٣) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري (٤٧٧)، من كلام زهير بن نعيم البابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويكفي في فضيلة هذه الشعيرة العظيمة أن بإقامتها على وجه الصواب تستحق هذه الأمة أن تكون خير أمة أُخرجت للناس، كما قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطهما:

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مسلم حر مكلف عالِم بذلك، بشرط القدرة عليه على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم، وضرر في نفسه وماله وأهله، ولا فرق بين أن يكون إمامًا، أو عالِمًا، أو قاضيًا، أو واحدًا من الرعية.

وإنما شرطنا العلم بالمنكر والقطع به؛ لما في ذلك من خوف الوقوع في الإثم؛ لأنه لا يأمن المنكِرُ أن يكون الأمرُ بخلاف ما ظن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

والعلمُ بالمنكر يشمل العلمَ بوقوع المنكر بأن يكون ظاهرًا للمحتسب بغير تجسس، ويشمل كذلك العلم بحكم المنكر بأن يعلم كونَه منكرًا في دين الله بغير اجتهاد.

والأصل أن هذا الواجب فرض على الكفاية، وقد يتعين في بعض المواضع، والله تعالى حين قال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، دل على أن القيام بهذا الواجب كما هو سمة هذه الأمة، فهو فرضُ كفاية عليها.

والأصل في هذا الواجب أن يكون على الفور إلا ما استثني.

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب

على الفور إجماعًا، فمَن أمكنه أن يأمر بمعروف، وجب عليه»(١).

أدلة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

دلت الشريعة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطرق متنوعة، فبالأمر الصريح تارة، وبالدخول تحت العمومات أخرى، وباقترانه بأركان الدين ثالثة، وبالنهي عن تركه رابعة، وبالتوعد الشديد على التخلف عنه خامسة، وبغير ذلك من الطرق التي يُفهم من مجموعها تأكد وجوب هذه الشعيرة، وأن إضاعتها والتخلف عنها من كبائر الذنوب.

فقد استحقت الأمم قبلنا اللعنة بإضاعة هذا الواجب، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩]، وهذا غاية التشديد؛ إذ علَّل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر!

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥]، فبيَّن أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، واستحق الظلمة العذاب، ويدل ذلك على الوجوب أيضًا.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤١]، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نَعْت الصالحين والمؤمنين.

---

(١) الفروق، للقرافي (٤/ ٢٥٧).

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]، وهو أمر جازم، ومعنى التعاون على البر: الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسَب الإمكان، ويدخل في ذلك بالأصالة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣]، فبين أنهم أَثِمُوا وذُموا بترك النهي.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦]، فبيَّن أنه أهلك جميعهم إلا قليلًا منهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين.

وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]، فقد وعد الله بالأجر العظيم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونفى الخيرية عما يضاده ويخالفه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]، والإصلاح نهي عن البغي، وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يفعل، فقد أمر الله تعالى بقتاله، فقال سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٩]، وذلك هو النهي عن المنكر.

أما أدلة السنة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكثيرة، منها: حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١).

وأداء هذا الواجب على وجهه الصحيح يَخرج به المكلف من عهدة التكليف، والله تعالى قد قال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فعن عكرمة قال: «دخلتُ على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يقرأ في المصحف قبل أن يذهب بصره، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هل تعرف أيلة؟ قلت: وما أيلة؟ قال: قرية كان بها ناس من اليهود، فحرم الله عليهم الحيتان يوم السبت، فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شُرعًا بيضاء سِمان كأمثال المخاض بأفنياتهم وأبنياتهم، فإذا كان في غير يوم السبت، لم يجدوها، ولم يُدْركوها إلا في مشقة ومئونة شديدة.

فقال بعضهم لبعض- أو مَنْ قال ذلك منهم: لعلنا لو أخذناها يوم السبت، وأكلناها في غير يوم السبت، ففعل ذلك أهل بيت منهم، فأخذوا فشَوَوا، فوجد جيرانهم ريح الشواء، فقالوا: والله، ما نرى أصحاب بني فلان شيء، فأخذها آخرون حتى فشا ذلك فيهم وكثر، فافترقوا فِرقًا ثلاثًا: فرقة أكلت، وفرقة نَهت، وفرقة قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فقالت الفرقة التي نَهت: إنا نحذركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو قذف أو ببعض ما عنده من العذاب، والله لا نُبَايتكم في مكان وأنتم فيه،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

وخرجوا من السور، فغَدَوا عليه من الغد، فضربوا باب السور، فلم يُجبهم أحد، فأتوا بسُلم فأسندوه إلى السور، ثم رقي منهم راق على السور، فقال: يا عباد الله، قردة- والله- لها أذناب تَعاوى، ثلاث مرات.

ثم نزل من السور، ففتح السور، فدخل الناس عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنسُ أنسابها من القردة، قال: فيأتي القرد إلى نسيبه وقريبه من الإنس، فيحتك به، ويلصقُ، ويقول الإنسان: أنت فلان؟ فيشير برأسه، أي: نعم، ويبكي، وتأتي القردة إلى نسيبها وقريبها من الإنس، فيقول لها: أنت فلانة؟ فتشير برأسها، أي: نعم، وتبكي، فيقول لهم الإنس: أمَا إنا حذرناكم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو مسخ أو ببعض ما عنده من العذاب.

قال ابن عباس: فاسمع الله يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، فلا أدري ما فعلت الفرقة الثالثة!

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فكم قد رأينا من منكر فلم نَنْه عنه. قال عكرمة: فقلت: ما ترى جعلني الله فداك؟ إنهم قد أنكروا، وكرهوا حين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف:١٦٤]؟ فأعجبه قولي ذلك، وأمر لي ببُرْدين غليظين، فكسانيهما»(١).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المتقاعسين والمتسرعين:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد دائم، وواجب لا قيام للدين بدونه، ولا اعتصام بحبل الله إلا على هداه، ولا تتحقق تمام ولاية الله بين المؤمنين إلا به.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

---

(١) تفسير ابن جرير (١٠/ ٥١٥)، والحاكم (٣٢٥٤).

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

والنبي ﷺ كان حريصًا على إقامته، حريصًا على التحذير من الإخلال به، ولهذا كان الناكلون عن القيام بهذا الفرض من المقصرين الذين يَلحقهم اللوم، بل يلحقهم الإثم.

نصيحة المتقاعسين عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

يقال للذين نكلوا عن القيام بهذا الواجب، وتقاعسوا عن أدائه: ليس الاشتغال بهذه الفريضة ترقيعًا لبعض مظاهر الفساد، ولا تحصيلًا لمصالح جزئية لا قيمة لها، بل هو من أجل مهام أتباع سيد النبيين ﷺ الذين قيل في حقهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فلا يليق بمسلم أن يتقاعس عن القيام بهذا الواجب على وجهه الصحيح، وبالأدب الكامل الذي علم رسول الله ﷺ.

ولا يُسبب القيام بهذه الشعيرة- بالضرورة- فتنةً ومحنةً تعوق العمل الإسلامي، أو يضر بمصلحة الدعوة، بل مصلحة الداعي والدعوة معًا في اتباع القرآن الكريم وأوامره، والسنة وأحكامها، والله تعالى يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهى الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر»(١).

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٥/ ١٦١).

نصيحة المتسرعين في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

ومن الناس مَن يتسرع في هذا الواجب، فيقيمه على غير وجهه، أو ينكر في غير مجال للإنكار، إذ لا إنكار في موارد الاجتهاد كما يقول العلماء، وأنه يجب الاقتصار في التغيير باليد، والإنكار باللسان على قَدْر الحاجة من غير تجاوز.

وينبغي ترك الإنكار، والاحتساب، وأن يستعمل العبد الحكمة والصبر إذا أدى الإنكار إلى مفسدة أكبر، أو إلى فتنة أشد.

وأما زوال المنكر، وحصول ما هو أكبر منه، أو فوات ما هو أكبر من المعروف، فممنوع شرعًا، وعند تزاحم المصالح أو المفاسد في أمر ما، يطلب الترجيح، فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، فليقدم أوكدهما، وإذا تحققت مفسدتان، فلترتكب أخفهما، وهكذا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحةً على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسل، وأُنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد... وحيث كانت المفسدة للأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب، وفُعِل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هُداهم»(١).

ثم إن هذه الشعيرة العظيمة تُناط بالقدرة والاستطاعة وغَلَبة المصلحة، فتَسقط بالعجز؛ لقول النبي ﷺ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»**(٢)، أي: فَإنْ عجز

---

(١) الاستقامة، لابن تيمية (٢/ ٢٢١).

(٢) سبق تخريجه.

عنه بيده، فليكن التغيير باللسان، فَإنْ عجز أن يغير باللسان، فإنه لن يعجز أن ينكر بقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

وكما يسقط بالعجز، يسقط- أيضًا- بخوف الضرر المُحقق، وفي الحديث: «**إن اللهَ لَيَسْأَلُ العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ، وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ**»[١]، فاعتبر ذلك الفَرَقُ والخوف حُجة يُدْلي بها العبد عند ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ويقول ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد أجمع المسلمون أن المنكر واجب تغييرُهُ على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يَلحقه في تغييره إلا اللومُ الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكره بقلبه، فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك، والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًّا، ولكنها كلها مقيدة بالاستطاعة»[٢].

والمقصود: أن الإنكار بالقلب لا يسقط أبدًا، فلا بد أن يُبغض المسلمُ المنكَرَ بقلبه، وأن يطلع الله تعالى على بغض القلب وتمعر الوجه من هذه المنكرات، فَإنْ قوي ما في القلب، واستطاع اللسان أن يجري بالإنكار، وببيان الحرمة، فإن اللسان لا يجوز له أن يترك ذلك، وهكذا.

والإنكار باليد أعلى درجات الإنكار، وينبغي أن ينكف الإنسان عن الإنكار بيده إذا ترتب على ذلك ما هو أشد نكارة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٧).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر (٢٣/ ٢٨١).

ومن المهم أن يتدرج المنكِر في الإنكار، وأن ينظر إلى مآلات إنكاره؛ وليعلم أن زوال المنكر بالكلية أو تخفيفه مطلوب شرعًا.

ومع أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فرائض الوقت المُضاعة، ومِن حُرَم الإسلام المهدرة، فإن الحاجةَ اليوم إلى تأليف القلوب، والمداراة مع تصحيح المفاهيم، واستفاضة البلاغ، وإقامة الحُجة، وبناء القاعدة الإيمانية في قلوب الناس، وإنكار المنكرات العامة في الأمة بعلم وحِلم- أمس من حاجتها إلى قصر الاحتساب على طائفة من المنكرات الجزئية في الوقت الذي تندرس فيه معالم الدين الكلية، وتلتبس أصوله ومعاقده الكبرى.

وبقدر كثرة المنكرات وتعددها، تكثر وسائل الإنكار والتغيير، وتتنوع مجالات النصح والتعبير، ولذلك يستعمل فيه مختلف وسائل الإعلام والتأثير المكتوبة، والمسموعة، والمرئية.

اللهم اسلك بنا سبل الآمرين بالمعروف بالمعروف، والناهين عن المنكر بالمعروف، واجعلنا من أهل قولك: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

والحمد لله رب العالمين.

البصيرة السادسة عشرة

في الوحدة والائتلاف والاجتماع والبعد عن الفرقة والاختلاف

ورد الأمر بالوحدة والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف في كتاب الله كثيرًا، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥١-٥٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٠-٣٢].

فتحقيق الوحدة والائتلاف، ونبذ الفُرْقة والاختلاف بين المسلمين عامة، وبين طوائف العاملين للإسلام خاصةً من أهم مقاصد الدين، وقواعده الكلية.

وقد حذر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الاختلاف والتفرق، وبيَّن شؤم عاقبة التفرق، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

ولقد استُدل بهذه الآية مع الآية السابقة التي فيها ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] على أن الاجتماع من أعظم أصول الإسلام، ومن آكَد قواعد الإيمان التي بعث الله تعالى بها الرسل، وأنزل بها الكتب، وأمر بها عباده أمرًا جازمًا باتًا بالاجتماع، ونهاهم عن التفرق والاختلاف؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

ولقد بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين، والأُلْفة والجماعة، وترك الفرقة والمخالفة، كما أن في ذلك توجيهًا بألا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا.

فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمر المؤمنين كلهم بأن يعتصموا بحبله جميعًا، وألا يتفرقوا، وذم الذين تفرقوا في الدين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ**»(١).

والأصل أن المسلمين أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم، وهم يَد على مَن سواهم،

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥).

كما يسعى بذمتهم أدناهم، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كما جاء في الحديث عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ**»(1).

وعن أبي نضرة، عمن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**»(2).

ذمُّ أهل التفرق والاختلاف في الدين:

وقال سبحانه جل في عُلاه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩]، فقد ذم الله تعالى الاختلاف وأهلَه، وذكر لخلافهم سِمَتَينِ ظاهرتين:

الأولى: أن خلافهم لازم دائم؛ ولذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

والثانية: أنهم خالفوا المؤمنين، وأعظم ما يكون خلافهم للمؤمنين في الأصول والمعتقدات، ولهذا استثنى الله تعالى المؤمنين من الاختلاف، وحكم لهم بالرحمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولًا وفعلًا، وهم أهل القرآن والحديث من هذه

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩).

الأمة، فمن خالفهم في شيء من ذلك، فاته من الرحمة بقَدْر ذلك»[١].

«وهذا كله صريح في أن اختلاف الأهواء مكروه غير محبوب، ومذموم غير محمود.

وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، قال: «إنهم أهل الباطل» ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، قال: «أهل الحق ليس بينهم اختلاف»[٢].

وعن مطرف بن الشخير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «لو كانت الأهواء كلها واحدًا، لقال القائل: لعل الحق فيه، فلما تشعبت وتفرقت، عرف كل ذي عقل أن الحق لا يتفرق»[٣].

وعن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، يعني: في الأهواء ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، هم أهل السنة.

وعن منصور بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنت جالسًا عند الحسن ورجل خلفي قاعد، فجعل يأمرني أن أسأله عن قول الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩]، قال: نعم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٩]، فمَن رَحِم غيرُ مختلف»[٤].

وعن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس: «إن أهل الرحمة لا يختلفون»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٤/ ٥٢).
(٢) تفسير ابن جرير (١٢/ ١٤١).
(٣) شرح أصول الاعتقاد، للالكائي (٣١٢).
(٤) تفسير ابن جرير (١٢/ ١٤١)، والمتفق والمفترق، للخطيب البغدادي (٣/ ١٩٢٣).
(٥) السنن، لسعيد بن منصور (٥/ ٣٦٧)، والتفسير، لابن أبي حاتم (١١٢٩٦)، والقدر، للفريابي (٦١).

وأساس وحدة الأمة: الإسلام، وتحكيم هذه الشريعة على منهج أهل السنة والجماعة، وأصولهم القويمة.

وكما أن البدعة مقرونة بالفرقة، فإن السنة مقرونة بالجماعة، ولا شك في أن أعظم سبب للاجتماع هو جمع الدين علمًا وعملًا، ونتيجته العزُّ والتمكينُ في الدنيا، والنجاةُ من التفرق، والفوزُ والفلاحُ في الآخرة، والنجاةُ من النار.

ولهذا، فإن جماعَ الدين تأليفُ القلوب، واجتماعُ الكلمة، وصلاحُ ذات البين، وأهل هذا الأصل- كما يقول ابن تيمية- هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

أنواع الخلاف والموقف منه:

وإذا وقع الخلاف بين أهل الإسلام، فإن الموقف من المخالف يتفاوت بتفاوت هذا الخلاف.

فمن الخلاف ما يُطْلق عليه أنه خلاف تنوع، فصاحبه محسن، مُثاب لإصابته الحق.

وأما صاحب خلاف التضاد، فما كان منه من الأمور الظنية، وكان خلافه سائغًا، فلا إنكار عليه، ولا تشنيع، بل تحاور، وتناصح، والتماس للمعاذير، وصاحب خلاف التضاد غير السائغ يُنْكر عليه خلافُهُ بعد أن تُزال عنه شبهاته، ويعامل بما يستحق أمثاله.

فالاجتماعُ على ما اتفق عليه أهل السنة، والتعاذرُ والتغافرُ فيما اختلفوا فيه من الفروع.

وأهل القبلة المتفقون في الملة قد يعرض لهم اختلاف؛ فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلةً للأنظار، ومجالًا للظنون، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف.

ولقد عد العلماء اختلاف السلف الصالح في الفروع ضربًا من ضروب الرحمة، وإذا كان من جملة الرحمة، فلا يمكن أن يكون صاحبه خارجًا من قسم أهل الرحمة، ولا داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾؛ ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يسرُّني لو أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة»[1].

ومعنى هذا: إنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد؛ لأنهم لو لم يفتحوه، لكان المجتهدون في ضيق؛ لأن الاجتهاد مجال للظنون، والظنونُ لا تتفق عادةً، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم، فكان فتحُ باب الخلاف الفروعي للأمة للدخول في هذه الرحمة، فكيف لا يدخلون في قسم ﴿مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، ولأجل التوسيع على الناس، وفتح باب الاجتهاد لهم، لم يجعل الله تعالى كافة أدلة الشريعة أدلة قطعية.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الله لم ينصب على جميع الأحكام الشرعية أدلةً قاطعةً، بل جعلها ظنية؛ قصدًا للتوسيع على المكلفين؛ لئلا ينحصروا في مذهب واحد لقيام الدليل عليه»[2].

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٧٠٣).

(٢) البحر المحيط، للزركشي (٨/ ١١٩).

ومعلوم أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ومَن اتبعهم بإحسان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقع بينهم خلاف في مسائل، بعضها في العبادات، وبعضها في المعاملات، وبعضها في السياسات، وقليل منها في مسائل فرعية اعتقادية، ومع ذلك لم يقع بينهم تهاجر، ولا تباغض، ولا تقاذف بالتهم والمناكر؛ ذلك أن العدل والإنصاف من أهم آداب الخلاف، والله تعالى يحب الإنصاف، بل هو أفضل حِلْية تحلى بها الرجل، خصوصًا مَن نصب نفسه حَكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥].

ومن قوادح العدل والإنصاف ونواقض الوحدة والائتلاف: العصبية لشيخ، أو لإمام، أو لحزب، أو لرأي اجتهادي، أو لمذهب فقهي.

ومن قوادح الاجتماع والألفة: أن يقدِّم بعض الناس المصلحةَ الجزئية على مصلحة الأمة، أو المصلحةَ الحزبية على مصلحة الأمة المحمدية.

وَأَعجبُ من هذا وأَنْكى: أن يقدِّم الإنسان مصلحةَ نفسه، أو مصلحةَ الفرد على مصلحة الطائفة والأمة معًا.

وقد لخَّص الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ الموقف من الخلاف وآدابه، فقال: «ولما كثر اختلاف الناس في مسائل الدين، وكثر تفرقهم، كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكل منهم يظن أنه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورًا، وقد لا يكون معذورًا، بل يكون مُتبعًا لهواه، مقصرًا في البحث عن معرفة ما يبغض، فإن كثيرًا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق، وهذا الظن قد يخطئ ويصيب، وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى والألفة أو العادة، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله، فالواجب على المسلم أن ينصح لنفسه، ويتحرز في هذا غاية التحرز، وما أشكل

منه، فلا يُدْخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرم.

وها هنا أمر خفي ينبغي التفطن له، وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولًا مرجوحًا، ويكون فيه مجتهدًا مأجورًا على اجتهاده فيه، موضوعًا عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقاتلته تلك بمنزلته في هذه الدرجة؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدين، لَما قَبِله، ولا انتصر له، ولا والى من يوافقه، ولا عادى مَن خالفه، وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصد الانتصار للحق وإن أخطأ في اجتهاده.

وأما هذا التابع، فقد شاب انتصارَه لما يظن أنه الحق إرادةُ علو متبوعه، وظهور كلمته، وأنه لا ينسب إلى الخطأ، وهذه دسيسة تقدح في قصدِهِ الانتصارَ للحق، فافهم هذا، فإنه مهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[١].

حاجة الدعوة إلى الله إلى تكامل يجمع بين الائتلاف والتنوُّع:

إن أمانة الدعوة إلى الله تعالى، ومسؤولية تعبيد الناس لربهم، مرورًا بتحكيم الشريعة، وإقامة دولة القرآن والسنة في هذا العصر لتقتضي حتمًا التكامل والتراحم والتعاون، بدلًا من التفرق والتباغض والتشاحن، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

إن أمانة الدعوة إلى الإسلام تستلزم الحض على الجماعة والوحدة والائتلاف، وتستلزم النهي عن الفرقة والاختلاف.

وفي مجالات الدعوة وآفاقها الرحبة من السعة والتنوع ما يستوعب كل

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨).

اجتهاد، ويستثمر كل طاقة، ولا بأس أن يقول كل داعية من أهل السنة لصاحبه إذا اختلف في أمر عملي كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصاحبه عبد الله العمري، بعد أن حثه على الاقتصار على باب بعينه من أبواب الخير، كتب إليه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربما رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، ونَشْرُ العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»(١).

وقد يُفْتح على الإنسان في العمل المفضول ما لا يُفْتح عليه في العمل الفاضل، فيكون عندئذ فاضلًا في حقه، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد»(٢).

ومع قلة الإمكانات، وكثرة الواجبات، وغَلَبة المنكرات، وتسلط الأعداء، وتسيد المنافقين، يتعين التعاون والتقارب بين الدعاة؛ أفرادًا وجماعات وهيئات.

إضاءات من إنصاف العلماء:

وما أجمل أن يقول كل مسلم، وكل داعية لصاحبه إذا اختلف علميًّا أو عمليًّا كما قال الإمام الشافعي ليونس الصدفي وقد تناظرا في مسألة، فلم يتفقا، فلما التقَيا، أخذ بيده وقال: «يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا، وإن لم نتفق في مسألة!»(٣)!

---

(١) التمهيد، لابن عبد البر (٧/ ١٨٥).
(٢) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٠/ ٦٦٠).
(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥١/ ٣٠٢).

وهذا الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَعتذر عن الظاهرية قائلًا: «ثم ما تفردوا به هو شيء من قبيل مخالفة الإجماع الظني، وتندُر مخالفتُهم الإجماعَ القطعي»[١].

ثم ذكر أنهم ليسوا خارجين عن الدين، وأنصفهم حين قال: «وفي الجملة، فداود بن علي بصير بالفقه، عَالِم بالقرآن، حافظ للأثر، رأس المعرفة، من أوعية العلم، له ذكاء خارق، وفيه دين متين، وكذلك فقهاء الظاهرية، جماعة لهم علم باهر، وذكاء قوي، فالكمال عزيز، والله الموفق»[٢].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن نحكي قول ابن عباس في الصرف والمتعة، وقول الكوفيين في النبيذ، وقول جماعة من الصحابة في ترك الغسل من الجماع بلا إنزال، ومع هذا فلا يجوز تقليدهم في ذلك»[٣].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أبو شامة: (كان إمامًا عَلَمًا في العلم والعمل، صنف كتبًا كثيرةً، لكن كلامه في العقائد على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان مَن لم يوضح له الأمر فيها على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار).

قلت: وهو وأمثاله متعجب منكم مع علمكم وذكائكم، كيف قلتم! وكذا كل فرقة تتعجب من الأخرى، ولا عجب في ذلك، ونرجو لكل مَن بذل جهده في تطلب الحق أن يغفر له من هذه الأمة المرحومة»[٤].

فعلى كل عامل للإسلام أن يجتهد في تحقيق مقصوده من نصرة الدين،

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٣/ ١٠٤).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٣/ ١٠٧، ١٠٨).
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٦/ ٣٢٧).
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٢/ ١٧٢).

والاجتماع على ذلك مع عباد الله الصالحين، وأن يتأدب بأدب العلماء العاملين، والدعاة المخلصين في جمع الكلمة والائتلاف، والبعد عن الفرقة والاختلاف.

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

البصيرة السابعة عشرة
في رعاية الأولويات
في مسيرة الدعوة والدعاة

فقه الأولويات فقه عظيم الأهمية، بالغ الخطر، وهو من قواعد السياسة الشرعية في إدارة الأعمال، ويقوم على المقاصد الكلية للإسلام من جهة، وللدعوة من جهة أخرى، فهو إدراك شرعي مقاصدي واقعي لرتب الأعمال، ومحاولة لترتيبها نظريًا وعمليًّا، وذلك من حيث الأهمية والتقديم والأرجحية.

فقه الأولويات في الكتاب والسُّنة:

هذا الفقه قد علمه الله تعالى لعباده في كتابه، وهو لبيان التفاوت بين الأعمال ورُتَبها؛ سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم طالحة، فالأعمال الصالحة في فضلها تتفاوت، والأعمال الطالحة في ضررها وشؤم عاقبتها تتفاوت أيضًا.

فمن الصالحات ما هو ركن، أو واجب، أو مستحب، ومن السيئات ما هو شرك وكفر عياذًا بالله، ومنه ما هو كبيرة، أو صغيرة، والتسوية بين ذلك جميعه نوع من أنواع الخروج عن مقتضى الشريعة الغراء.

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فقد تناولت الآية بيان تفاوت رُتب المنهيات، وأن بعضها أشد إثمًا وأعظم جرمًا من بعض! وأن اجتناب الأشد إثمًا أكبر طلبًا في ميزان الشريعة.

والنبي ﷺ أيضًا علم رُتب الأعمال الدعوية، وبين ما حقُّه التقديم، وما حقُّه التأخير، وقد رأيناه ﷺ يوجِّه معاذًا حين أرسله إلى اليمن داعيًا ومُعلمًا، فقال له: **«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»**(١).

وعن نَبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أخذ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الفقه فيما كتبه لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مُوجهًا ومُفقهًا، فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن القضاء فريضة محكمة، وسُنة متبعة، فافهم إذا أُدْلي إليك بحجة، وأنفذ الحق إذا وضح، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك؛ حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك»(٢).

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حريصين كل الحرص على أن يعرفوا الأَوْلى من الأعمال الصالحة؛ ليتقربوا إلى الله تعالى بها، ولهذا كثرت أسئلتهم عن أفضل العمل، وعن أحب الأعمال إلى الله تعالى، كما في سؤال ابن مسعود وأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما(٣)، وجواب النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٤٧١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٤٦٠).

(٣) حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥)، وحديث أبي ذر أخرجه البخاري =

ولذا كثر في الأحاديث: أفضلُ الأعمال كذا، أو أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا.

فعن عمرو بن عَبَسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: **أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ** ﷻ، **وَأَنْ يَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ**، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: **الإِيمَانُ**، قال: وما الإيمان؟ قال: **تُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ**، قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: **الهِجْرَةُ**، وقال: وما الهجرة؟ قال: **تَهْجُرُ السُّوءَ**، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: **الجِهَادُ**، قال: وما الجهاد؟ قال: **أَنْ تُقَاتِلَ الكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُمْ**.

قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: **مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ، وَأُهْرِيقَ دَمُهُ**، قال رسول الله ﷺ: **ثُمَّ عَمَلَانِ هُمَا أَفْضَلُ الأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا: حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ، أَوْ عُمْرَةٌ**»(١).

ومَن تتبَّع ما جاء في القرآن الكريم، ثم ما جاء في السنة المُطهرة في هذا المجال، جوابًا عن سؤال، أو بيانًا لحقيقة، رأى أنها قد وضعت أمامنا جملة معايير لبيان الأفضل والأولى والأحب إلى الله تعالى من الأعمال والتكاليف، وبيان ما بينها من تفاوت كبير.

وقد ذكرت بعض الأحاديث نِسبًا يُقدر بها هذا التفاوت من فضائل الأعمال، مثل قوله ﷺ: «**صَلَاةُ الجماعةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٢).

وقوله ﷺ: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**»(٣).

=

(٢٥١٨)، ومسلم (٨٤)، ومن الأحاديث في ذلك حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).

(٣) أخرجه النسائي (٢٣١٨).

وقوله ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ»(١).

وقوله ﷺ: «إن مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا»(٢).

معيار الموازنة بين الأولويَّات:

إن فقهَ الأولويات يقتضي موازنةً بين المصالح والمفاسد، ومقابلةً بين المنافع والمضار عند التزاحم، كما يقتضي إدراكًا لمقاصد الشريعة ومعانيها الكلية التي لأجلها شرعت الأحكام، والتي على أساسها تترتب مصالح الأنام.

ومن الأهمية بمكان أن نقرر أن معيار إدراك الأولويات في الدرجة الأولى هو معيار شرعي، وميزان الترجيح بينها هو ميزان نقلي؛ إذ هو المصدر المعصوم، والصدور عنه فرض محتوم، ثم ما استند إليه من إجماع موثق، أو قياس محقق.

ثم تأتي في الدرجة التالية: المقاصد الشرعية، والمصالح المرعية، ومصادر التشريع الثانوية؛ كسد الذرائع أو فتحها، وغير ذلك.

وأخيرًا، تأتي المشتركات العامة من تجارب الدعاة والمصلحين من لدن أنبياء الله، وإلى يوم الناس هذا.

وجهات الأولوية متعددة متنوعة، فالأعمال المطلوبة من حيث الزمان تتفاوت رُتبها بناءً على إدراك واجب الوقت، وفريضة العمر، وشرف الزمان والدهر، كما تتفاوت من حيثية المكان وما يتعلق به من عمل؛ رعايةً لفضله، أو تقديرًا لعُرف أهله، كما تتفاوت من حيث ما يطرأ من أمر استثنائي، أو يعرض من حالة خاصة، أو ما يقع مما يعسر الاحتراز عنه، أو تعم به البلوى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٩٧٦٢)، والترمذي (١٦٥٠).

ولذلك، فإن الأعمال والتصرفات سواء أكانت قلبيةً، أم قوليةً، أم فعليةً، تتفاوت في ذاتها كما تفاوتت في اعتبارات من خارجها.

وعن كتاب ربنا، وسُنة نبينا، قرر العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قواعد الأولويات بين الضروريات والحاجيات والتحسينيات، كما أصلُوا للتفاوت بين الواجبات والمندوبات والمحرمات والمكروهات في ذاتها تارةً، وعند التزاحم والتعارض تارةً أخرى.

ركائز فقه الأولويات الدعويَّة:

فقهُ الأولويات الدعوية له ركائزُ يقوم عليها تُمثل معاقد الاتفاق، وأصول الوفاق، وهي كالأصول المحكمات بين سائر الدعاة؛ أفرادًا وجماعات.

أولوية الاهتمام بالعقيدة والعبادة:

من تلك الركائز والأصول المهمة: أولوية إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وفي ساحة الدعوات لا بد أن تكون هذه أولوية قبل كل أَولوية، فأول المأمورات وأولاها بالدعوة: توحيد الله تعالى، وأول المنهيات وأَوْلَاها بالإنكار: الشرك بالله عياذًا بالله.

وخوض المعركة العقدية في الإصلاح والتأثير مقدم على خوض المعركة العسكرية في القتال والتغيير.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢]، ونبينا ﷺ بَيَّن أنه لن تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[(١)].

(١) أخرجه أحمد (٥٩٤)، والترمذي (٣٠٩٢)، والنسائي (٣٩٣٥).

أولوية التربية:

ومن الأولويات المهمة أيضًا: أولوية حال السعة والاختيار، وهي أولوية الجهاد التربوي قبل الجهاد العسكري، إِذ من خان «حي على الصلاة»، يوشك أن يخون «حي على الجهاد»، ومَن سقط أمام المعاصي والموبقات، جدير أن يسقط في المواجهات، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

ثم إن التمكين إنما يُطْلب لإقامة الفرض والنفل، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

أولويَّة الاتباع وترك الابتداع:

ومن الأولويات المهمة أيضًا: أولوية الرد إلى الأمر الأول، ذلك أنه «لن يصلح آخر هذه الأُمة إلا بما صلح به أولها»[١]، «ما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[٢].

والأمر الأول هو ما عبر عنه نبينا ﷺ، فقال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[٣]، فلزومُ سبيل الصحابة والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين- هو منهج النجاة،

(١) من كلام الإمام مالك، كما في مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٢١/ ٣٨٦، ٣٨٧).
(٢) من كلام الإمام مالك، أخرجه ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام (٦/ ٥٨).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

وهو سبيل الفلاح، وهو طريق النجاح.

و«إذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسلين، فمن المعلوم أن أَحَق الناس بذلك هم أَعْلَمُهُم بآثار المرسلين، وأَتْبَعُهُم لذلك، فالعَالِمون بأقوالهم وأفعالهم، المُتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من كل مِلة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأُمة»(١)؛ «فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(٢).

أولوية الانتماء للإسلام والسُّنة:

وهنا تبدو أولوية أخرى، وهي أولوية الانتماء إلى الإسلام والسنة قبل الانتماء لطائفة من طوائف الدعوة، فالانتماء إلى الإسلام أولًا وقبل كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ثم الانتماء إلى السنة، والنسبة إليها قبل كل نسبة، وفوق كل راية، ذلك أنه انتماء غاية لا انتماء وسيلة، وأنه يُعقد عليه الولاء والبراء دون غيره من الانتماءات، و«أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعْرفون به، لا جهمي، ولا قَدَري، ولا رافضي»(٣).

أولوية التأصيل والأصالة مع التجديد والمعاصرة:

إن العودة إلى الأصلَين المعصومين هو منطلق كل دعوة صحيحة، والصدور عن عقيدة أهل السنة هو رأس كل منهجية سديدة، ونقل مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلى الهوى المشؤوم نقض لعقيدة الألوهية،

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (٣/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) من أقوال الإمام مالك. الانتقاء، لابن عبد البر (ص٣٥).

وردة- عياذًا بالله- إلى الجاهلية، وأشأمُ من ذلك وأقبحُ: الانطلاقُ في أعمال الدعوة الإسلامية من منطلقات المصالح الدنيوية، أو مرجعيات النظريات الغربية في السياسة والاجتماع وغيرها دون تقيد بأحكام الشريعة.

فالدعوة الصحيحة هي التي تبدأ من تأصيل الحكم الشرعي لتنتهي إلى إصلاح الواقع، وإقامة حكم الله فيه، لا التي تنطلق من ضغوطات الواقع وتحدياته إلى تأويل حكم الشرع أو التخلي عنه.

ومواجهة الانحرافات المعاصرة بتلك المنطلقات الثابتة أولوية دعوية منهجية، فلا فرق بين انحراف بدائي وآخر حضاري، وكما تُنكر منكرات القبور، تُنكر منكرات القصور، وكما تواجه تيارات الجهل والخرافة، تواجه تيارات التغريب والعلمنة.

وينبغي العناية بالتجديد والمعاصرة في وسائل الدعوة مع الانضباط بضابط المشروعية بعد التأكيد على أنها اجتهادية، ولا ينبغي الاقتصار على وسيلة عامة دون خاصة، كما لا تختصر الدعوة في مؤسسات خيرية، أو هيئات اجتماعية.

أولوية صلاح النفس قبل إصلاح الغير:

ومن الأولويات المهمة أيضًا: أنَّ على مَن يقوم بالإصلاح أن يصلح نفسه أولًا، ثم مَن يَعُول، وقد كان من دأب السلف تقديم التربية بالقدوة الحسنة والأفعال الصالحة على مجرد الكلام الخالي من التطبيق.

وقد روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا نهى الناس عن شيء، جمع أهل بيته، فقال: «إني نهيت عن كذا وكذا، والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني- والله- لا أُوتى برجل منكم وقع في شيء

مما نَهيتُ عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة؛ لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم، ومن شاء فليتأخر»[١].

وقد كان الكثير من علماء السلف يصحبهم الناس، ويحضرون مجالسهم، لا لكتابة العلم، بل للاستفادة من سَمتهم وأخلاقهم قبل أن يستفيدوا من كلامهم، «كان يجتمع في مجلس أحمد زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب، وحسن السمْت»[٢].

وإذا أصلح الإنسان نفسه ومن حوله، كان البدء بالإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم وتقويته قبل الاهتمام بفضح مُخططات الأعداء ومؤامراتهم، فما كان للأعداء أن يتسلطوا لولا الفساد والضعف الداخلي.

أولوية العناية بأعمال القلوب:

ومن الأولويات المهمة أيضًا: تقديم الاهتمام بأعمال القلوب على أعمال الجوارح؛ لأنه إذا صلح القلب، صلح سائر العمل، وإذا فسد القلب، فلا عبرة بصلاح الظاهر عند فساد السرائر، قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[٣].

تقديم الفروض على النوافل:

ومن الأولويات المهمة أيضًا: تقديم الفرض والواجب على السنة والنفل، ومن ذلك نهي النبي ﷺ للزوجة أن تصوم تطوعًا وزوجها حاضر إلا بإذنه[٤]؛

(١) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (٢٠٧١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٢٨٥).
(٢) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٢٨٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٤) أخرجه البخاري (٥١٩٢)، ومسلم (١٠٢٦).

لأن حق الزوج واجب عليها، والصوم نافلة.

قال الإمام الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يصح تعاطي الفضل إلا بعد العدل، فإن العدل فِعْل ما يجب، والفضل الزيادة على ما يجب، وكيف يصح تصوُّر الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته؟ ولهذا قيل: لا يستطيع الوصول من ضيَّع الأصول، فمن شغلهُ الفرض عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور»(١).

أولويَّة ترك المنكرات قبل فِعْلِ المأمورات:

ومن الأولويات: تقديم الاهتمام بترك المنهيات على فعل المأمورات، ولهذا قال ﷺ: «**فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(٢)، وهذه القاعدة ليست على إطلاقها في كل حال، بل إذا كانت تلك المأمورات والمنهيات في مرتبة واحدة من الدين، فتركُ المكروهات أولى من فعل المستحبات مثلًا.

وقد عبر أهل العلم عن هذا المعنى بقولهم: «التخلية قبل التحلية»، ويُعبرون عنها- أيضًا- بقولهم: «درء المفاسد مُقدم على جلب المصالح»، وهذا عند تساوي المفاسد والمصالح في المرتبة والدرجة، مع اعتبار ما يقتضيه واقع الحال والزمان والمكان.

أولويَّة تقديم ما تعدَّى نفعُهُ:

ومن الأولويات المهمة عمليًّا: تقديم العمل المتعدي نفعه إلى الغير على العمل القاصر نفعه على صاحبه، كمن يستطيع أن يُعلِّم الناس علمًا نافعًا في وقت

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٣/ ٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

من الأوقات، أو يذكر الله وحده منفردًا، فقيامُهُ بتعليم الناس أولى؛ وذلك لتعدي نفعه، وشمول خيره.

ومن الأولويات المهمة أيضًا: تقديم العلم الذي يتَرتب عليه ثمرة وعمل على العلم النظري الذي لا يترتب عليه شيء، فهناك من يشغل نفسه بقضايا لا تُقدم ولا توخر، ويضيع وقته وأوقات الآخرين فيما لا ينفع، أو فيما ضررُهُ أكبر من نفعه.

أولويَّة أداء حقوق العباد:

لقد رأينا الشرع الحنيف يؤكد في كثير من أحكامه على تعظيم ما يتعلق بحقوق العباد، ففرض العين المتعلق بحق الله تعالى وحده يمكن التسامح فيه بخلاف فرض العين المتعلق بحقوق العباد.

وقد قال العلماء: إن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحَّة، ولهذا إذا كان الحجُّ- مثلًا- واجبًا، وأداءُ الدَّين واجبًا، فإن أداء الدَّين مقدم، فلا يجوز للمسلم أن يُقْدم على الحج حتى يؤدي دَينه إلا إذا استأذن من صاحب الدَّين، أو كان الدَّين مؤجلًا، وهو واثقٌ من قدرته على الوفاء.

فاللهم هَبْ لنا من لدنك فقهًا وبصيرةً في الدين، واتباعًا وعملًا بسنة سيد المرسلين، وتقبل منا برحمتك يا أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

البصيرة الثامنة عشرة
في إيثار الآخرة على الدنيا

الحمد لله الذي جعل الدنيا للآخرة ممرًّا، وجعل الآخرة للعباد مستقرًّا، جعل الدنيا مزرعةً للآخرة، وجعل الآخرة حصادًا لما قدمه المرء في الدنيا، جعل الدنيا دار عمل ولا جزاء، وجعل الآخرة دار جزاء ولا عمل، جعل الدنيا ضَرة للآخرة، فمن تعلق بدنياه، خاب سعيه في أخراه.

حقيقة الدنيا:

أ- متاع قليل:

إن المؤمن يعرف حقيقة الدنيا وقيمتها حين يتلو قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

فمتاع الدنيا قليل يسير، ثم هذا المتاع القليل مُنغص، لا يخلو عن هَمٍّ وكَدر، ثم إنه مع تنغيصه سريع الزوال، موشكُ الاضمحلال!

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل شيء يتمتع به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل؛ إذ لا بقاء له، ولا صفو فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، أما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خطر ولا قدر للدنيا»[١].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ١٢٦).

فرحم الله عبدًا عرف حقيقة الدنيا، فأنزلها منزلتها، وجعلها خادمةً للآخرة الباقية الخالدة، قرأ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾، فقال: «رحم الله عبدًا صحبها على حسَب ذلك، ما الدنيا كلها من أولها إلى آخرها إلا كرجل نام نومةً، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه!»[1].

وطريق صحبة الدنيا على حسَب حقيقتها: هو الزهد فيها، بالإصغار لجملتها، والاحتقار لجميع شأنها؛ لتصغير الله لها، ولتحقيره إياها في غير ما آية من كتابه.

ب- لعب ولهو:

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الأنعام:٣٢]، أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو يلهى الناس، ويَشغلهم عن العمل الحق الذي يعقب المنفعة واللذة الحقيقية الدائمة الخالصة من كل كدر في الآخرة.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة، فإنها ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هى للمتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥٦٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص٢٥٤).

فاحذروا- أيها المؤمنون- أن تكونوا مثل مَن قد محضوا للدنيا كل ما لهم من أعمال وأعمار، فلا يقصدون بتصرفاتهم إلا الدنيا ومكاسبها، أما الآخرة فلا تخطر لهم على بال!

أخذت الدنيا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم، بما فيها من الزخارف الوهمية التى هى مراقد الفناء، ومرابض الزوال، وقواتل الأوقات.

تلك الزخارف هى الألعاب والملاهى التى علمنا الله حقيقتها، فقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أما الذي يستحق الجهد والبذل، ويستحق الصبر والمصابرة، وتنبغى له المسارعة والمسابقة، فهو ما ورد في الآية التالية مباشرةً لما ذكرنا من وَصْف الله للدنيا، وهو قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية:

إذا كانت الدنيا حياة لعب ولهو، وحياة فناء وزوال، وهلاك واضمحلال، فإن الحياة الآخرة هى الحيوان، والحيوان هى الحياة الحقيقة الكاملة[1].

يقول تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

(١) المصباح المنير (١/ ١٦٠).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يقول: إلا تعليل النفوس بما تلتذ به، ثم هو منقض عن قريب، لا بقاء له، ولا دوام، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يقول: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التى لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها»[1].

فعلامة المؤمن الحق ألا يفرح بهذه الدنيا، ولا يركن إليها، وأن يعلم أن ما أعده الله لعباده في الآخرة أعظم وأفضل من اللعب واللهو.

فشأن المؤمن إذا صح الإيمان في قلبه، واستقر في نفسه أن يُؤْثر آخرته على دنياه، فيعلم أن الدنيا دار لا استقرار فيها، بل هى دار ممر لا دار مقر، فيتزود من ممره إلى مقره.

وأما الذين لا يحسبون للآخرة حسابًا، ويكذبون بيوم الدين بأعمالهم- وإن لم يكذبوا بأقوالهم- فإن على قلوبهم ران الإثم والمعصية، وعلى بصائرهم غشاوة الشح والحرص، فلا ينزعون عن حب الدنيا، والتعلق بها، والإقبال عليها حتى تُنزع منهم قهرًا.

إن هؤلاء يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد، أو عَرَض من عَرَضها القريب، وليس في مثل هذا يكون التنافس، إنما التنافس الحق هو في ذلك النعيم الأبدي، وذلك التكريم الربانى، قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

إن المتنافسين في متاع الأرض مهما كبر وارتفع شأنهم إنما يتنافسون في

---

(١) تفسير ابن جرير (١٨/ ٤٣٩).

حقير فانٍ، ولو كان ما يتنافسون عليه الدنيا بأَسرها، فإنها لا تزن عند خالقها جناح بعوضة، والآخرة ثقيلة في ميزانه.

وإن من دلائل ذلك وأماراته: أن يتنافس الناس على الدنيا، فتنحط أرواحهم، وتفسد أخلاقهم، وأما الذين يتنافسون على الآخرة، فترتفع أرواحهم، وتسمو أخلاقهم، والتنافسُ على طاعة الله ومرضاته يصلح الأرض بأَسرها، ويعمرها بطاعة ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

رحلة إلى الآخرة:

إن الحقائق تتبدى جليةً حين تأتي هذه اللحظة الفارقة، لحظة الموت التي يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، أي: أيها الغافل المكذب بآيات الله، قد جاءت ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له، ولا مناص، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، أي: تتأخر وتنكص عنه(١).

إنها اللحظة التي لا تفوت أحدًا، ولا يفوتها أحد، لا يسبقها هارب، ولا يدفعها محارب، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

كُلُّ ابْنِ أُنْثى وَإِنْ طالَتْ سَلامَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ(٢)

أيها المؤمن،

تَفَكَّرْ فِي مَشِيبِكَ والمَآبِ ... وَدَفْنِكَ بَعْدَ عِزِّكَ فِي التُّرَابِ

(١) تفسير السعدي (ص٨٥٢).

(٢) من شعر كعب بن زهير، جمهرة أشعار العرب (ص٦٣٨).

إِذَا وَافَيْـتَ قَبْـرًا أَنْـتَ فِيـهِ تُقِـيمُ بِـهِ إِلَـى يَـوْمِ الحِسَـابِ
وفي أَوْصَالِ جِسْمِكَ حِين تبقَى مُقَطعَـةً مُمَزقَـةَ الإِهَـابِ

حكى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن هؤلاء الذين يطول ندمهم من لحظة موتهم وإلى ما شاء الله، فقال عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالَى ذكرُهُ: حتى إذا جاء أحد هؤلاء المشركين الموت، وعاين نزول أمْر الله به، قال لعظيم ما يعاين مما يقدم عليه من عذاب الله تندمًا على ما فات، وتلهفًا على ما فرط فيه قبل ذلك من طاعة الله، ومسألته للإقالة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا، فردونى إليها، ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾، فيقول الجبار: ﴿كَلَّآ﴾»(١).

فراجع نفسك- أيها المؤمن- قبل أن تطلب الرجعة فلا تُجاب، وحاسب نفسك في مُهلة عمرك، وفُسحة أجلك قبل أن يعاجلك الحساب، فإنك عن قريب مشرف على الآخرة، فاعتبر بحال من أشرف عليها قبلك، فانحدر قسرًا في أوديتها، وتدلى قهرًا في مهاويها، فأراد التمسك فلم يمكنه ذلك، وأراد التشبث فلم يقدر عليه، وطلب الرجوع فلم يجد إليه سبيلًا.

وإياك إياك أن تجتمع عليك الخصلتان المخوفتان، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتق الله يا ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، وحسرة الفوت»(٢).

أيها المؤمن، تصور نفسك- يا عبد الله- وقد نزل بك الحق من أمر الله تعالى،

(١) تفسير ابن جرير (١٧/ ١٠٦و١٠٧).
(٢) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف (ص٣٣٨).

فهل تأتيك ملائكة الرحمة من السماء، أم تنزل ملائكة العذاب عياذًا بالله؟

تصور نفسك حين يمتلئ قلبك فرحًا وسرورًا بملائكة الرحمة، أو- عياذًا بالله- يمتلئ رعبًا وحزنًا من رؤية منكر ونكير، وسؤالهما لك.

تصور نفسك كيف يكون شعورك حين يُثبِّتك الله تعالى بالإجابة المُسددة الموفقة، فتوقن بالسلامة وبالنعيم المقيم، أم كيف يكون شعورك إذا زلَّت قدمك عند السؤال عياذًا بالله، فكيف تكون حسرتك في هذا الموقف، وكيف تزداد حسرتك بعد ذلك في مواقف الآخرة التالية!

تصوَّر حالة بدنك الناعم المترف وقد اختلطت أبعاضه وأجزاؤه بالتراب، تصوَّر حالك وقد امتلأ فمك بالتراب، وصار الدود في جسدك حتى أخفى معالمك.

وفيما أنت كذلك، إذ سمعت الصوت العظيم ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [سورة ق:٤١، ٤٢]، يومها ينادي مَلَك: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء، تصور وقوع الصوت في سمعك، تصور دعاءك إلى العرض على مالك الملك حين يطير فؤادك، ويشيب رأسك للنداء ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

فبينما أنت في فزع من الصوت، إذ سمعت بانشقاق الأرض، فخرجت منها حيا تنفض الغبار عنك، شاخصًا ببصرك إلى النداء، ذلك اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

تصور حالك وقد خرجت عاريًا من قبرك، تصور مذلتك ووحشتك، ووحدتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وهمومك، فأنت وحيد في زحمة الخلائق ﴿وَخَشَعَتِ

ﭐلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]!

تصور نفسك يوم الفزع الأكبر، يوم الخوف الأعظم، يوم الآزفة، يوم القارعة، يوم القيامة، أما سمعت الله تعالى ينذر فيقول: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، قال قتادة: «ترتفع القلوب من الصدور إلى الحلوق، وتلتصق بها من الخوف والفزع، فلا هي ترجع من أماكنها، ولا هي تخرج»[١].

عندئذ تنشق السماء، فهي يومئذ واهية، وتُكور الشمس، ويذهب نورها، وترى أمورًا قد وُصفت لك في كتاب ربك، تراها بعيني رأسك، فترى ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [المعارج: ٨]، أي: كالفضة المذابة، أو كالزيت المغلي.

تصوَّر نفسك وقد دنت الشمس من رأسك حتى بلغت إلى هذا الحال الذي وصفه رسول الله ﷺ، فقال: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**- قال سليم بن عامر راوي الحديث: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين- قال: **فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجَامًا**. قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[٢].

ثم تصور مجيء جهنم في هذا الموقف الرهيب تُقاد ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها!

فحينئذ يتذكر الإنسان، كما قال سبحانه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، وعندها يشيب الولدان، ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ

(١) تفسير السمعاني (٥/ ١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شِيبًا﴾ [المزمل:١٧]، ولا يبقى مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه، يقول: يا رب، نفسي نفسي، إلا نبينا ﷺ فيقول: «**أُمَّتِي أُمَّتِي**»[1].

تصور ذلتك بين يدي ربك، وانكسار قلبك، وانكشاف سترك، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، فبأي لسان تجيب حين يسألك عن قبيح أفعالك، وعظيم اجتراحك، وبأي قدم تقف غدًا بين يديه، وبأي طرف تنظر إليه، وبأي قلب تحتمل كلام العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه.

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي ... أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وتُخفِي الذنْبَ مِنْ خَلْقِي ... وَبالعِصْيَانِ تَأْتيني[2]

وقد ورد عن النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «**لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَي اللهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَلَا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[3].

تصور ذلك كله، ثم تصور مُنصرَف الناس إلى جزائهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، فمع أي فريق أنت؟

هذا هو السؤال الذي يجب أن تسأله نفسك في كل وقت وحين، وتسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يلهمك رشدك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٢٠٢).
(٣) أخرجه البخاري (١٤١٣) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اللهم إنك قلتَ وقولك الحق: ادعونـي أستجب لكم، اللهم فهذا الدعاء، وعليك الإجابة، اللهم فَارِجَ الهم، وكاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، فرِّج همنا يوم الدين، واكشف كربنا يوم العرض عليك، وأَجِبْ دعاءنا يوم اضطرارنا إليك.

رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، واغفر لنا أجمعين، يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

البصيرة التاسعة عشرة

في السعادة الإيمانية

لا شك أن راحة القلب وسروره، وزوال همومه وغمومه، هو مطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

فإلى المهمومين والحَزانى والمُعذَّبين، وإلى التعساء والمكروبين، وإلى الباحثين عن السعادة، هذه منابعها وأسبابها وموارِدها:

١ - أعظم أسباب السعادة وأصلها هو الإيمان والعمل الصالح:

إذا أردت سعادة الآخرة، فلا بد أن تسعد في الدنيا، وأن تُسعد قلبك في الدنيا، ولا يُسعدك مثل الإيمان، فالإيمانُ بما أَمَر الله به، وبما دعا إليه نبيه ﷺ هو مفتاح السعادة للبشر، وباب الأمل للخلق.

نقل ابن القيِّم عن بعض السلف قوله: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسَعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق»(١).

الإيمان والعمل الصالح سبب الأمن والاطمئنان:

الإيمان والعمل الصالح سبب الأمن والاطمئنان في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا، فلقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: **لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ** ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] **بِشِرْكٍ، أَوَ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»(٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك، وقال: **أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ العَبْدِ الصَّالِحِ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فالتوحيدُ من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشركُ من أعظم أسباب حصول المخاوف، ولذلك مَن خاف شيئًا غير الله، سُلط عليه، وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه، ولو خاف الله دونه ولم يخفه، لَكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه، وكذلك مَن رجا شيئًا غير الله، حُرم ما رجاه منه، وكان رجاؤُهُ غير الله من أقوى أسباب حرمانه، فإذا رجا الله وحده، كان توحيد رجائه أقوى

---

(١) الجواب الكافي، لابن القيم (ص٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٠).

أسباب الفوز بما رجاه، أو بنظيره، أو بما هو أنفع له منه، والله الموفق للصواب»(١).

وأما في الآخرة، فلقوله سبحانه في أهل الإيمان: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

الإيمان والعمل الصالح سبب الحياة الطيبة:

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

فأخبر تعالى ووعَد مَن جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار، وفي دار القرار.

ذلك أن أهل الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح، المُصلح للقلوب والأخلاق، معهم أصول وأسس يفهمون بها عن الله مراده، ويتلقون بها جميع ما يَرِدُ عليهم من أقدار الله، فإن أصابتهم سراء شكروا، وعرفوا حكمة الله، فلم يُسْرفوا أو يغتروا، وإن أصابتهم ضراء صبروا، وعرفوا فضل الله السابق، فلم يقنطوا أو يجزعوا، وإن أطاعوا الله حمدوه، وإن وقعوا في المعصية تابوا إليه واستغفروه.

فالمؤمنون بالله وحده هم أسعد الناس، وأرضى الخلق، وهم أشكر الناس، وأصبر الناس، فكل قَدَرِ الله لهم خير ورضًا وسرور، كما في الحديث عن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَه»**(٢).

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ٢٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

٢- ومن أسبابها وركائزها: الشكر، والصبر، والاستغفار:

السعيد هو من إذا أُنعم عليه شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

إذ الشكرُ قيدُ النعم، وطريق دفع النقم، تَذكر أيها الإنسان نِعمَ الله تعالى عليك، فستجد أنها تَغمرك من فوقك، ومن أسفل منك، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فالله تعالى أنعم عليك بصحة في بدن، وأمن في وطن، وأنعم عليك بغذاء وكساء، وهواء وماء، وعافية من البلاء، ثم إنه إذا ابتلاك عافاك، ورزقك الدواء، وكتب لك الشفاء!

كَم من مرة مرضتَ فشفاك، وكم من نازلة نزلت بك فخفت الهلكة منها فنجاك، وكم من مرةٍ أَلَمَّ بك الجوع والعطش فأطعمك وسقاك! فسبحانه سبحانه! ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، أيها الإنسان، لديك عينان ولسان وشفتان ويدان ورِجْلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣].

خلقك الله تعالى لتعبده، وأمرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تشكره، خلق ورزق، فعَبَد الكثيرون غيرَ الله، وشكر الغالبُ سواه، وصدق الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٦، ٧].

فإن رأيت الله ﷻ يعطيك ويمنحك وأنت مقيم على معصيته، فلا تأمن أن يكون ذلك استدراجًا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واحذر قول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

إن شأن أهل الإيمان والعمل الصالح، وأهل الصبر والشكر، وأهل الرضا والتوكل- أن يتلقوا المحاب والمسار بقبول لها، وشُكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه، أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها

هذه المسرات التي هي ثمراتها.

ويتلقون المكاره والمضار، والهم والغم بالمقاومة لما يُمْكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات والتجارب النافعة، والقوة على شدائد الحياة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة لا تفنى، ولا تضمحل.

٣- ومن مواردها وركائزها: الإحسان للخلق:

صنائع المعروف والإحسان إلى الخلق بالقول والفعل يدفع الله به عن البرِّ والفاجر الهموم والغموم بحسَب استكثاره منها، وللمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيُهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب الذي يفعل هذه الأعمال ابتغاء مرضات الله يؤتيه الله أجرًا عظيمًا، ومن جملة هذا الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

فعليك بالإحسان، ولا تنتظر من الخَلق إحسانًا، فأول مَن يَسعد في هذه الحياة من يُسعد غيره، فإذا طاف بك طائف من هم أو غم، فامنح غيرك معروفًا، وأَسْدِ له جميلًا، تجد فرحًا في قلبك، وراحةً في نفسك، فإن أحسنتَ فأنت أهل للإحسان والشكر.

أَحْسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ ... لَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

وتذكر أيها الإنسان أن الإحسان يمنعُ مصارعَ السوء، فصنائع المعروف تمنع عواقب السوء، وميتة السوء، ومصارع السوء، كما في الحديث: «**صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ**»(١).

فَإنْ نالك الشكرُ من الخلق فبها ونعمت، والحمد لله، وإنْ نالك الجحود والنكران، فَزِدْ في الإحسان، وقُل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

وإن أصابك عقوق من أبناء المعروف الذين أحسنتَ إليهم، فاطلب العِوضَ من الله، ولا تطلب عوضًا مِن سواه، واذكر قول نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(٢).

٤- ومن أسبابها ومواردها الكبرى: ذِكر الله تعالى:

من أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: ذِكر الله، إذْ بذكر الله تطمئن القلوب، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، كيف لا يطمئن قلب الذاكر ويسعد وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، فهو في مَعية الله ما دام لله ذاكرًا، وهو في حفظ الله وضمانه ما دام مسبحًا ومكبرًا ومهللًا.

إن ذِكْرَ الله سبحانه هو جنته في أرضه، ومَنْ لم يدخل الجنة في الأرض، لن يدخلها في الآخرة، بل إن ذِكر الله هو الحياة التي مَن حُرمها، فقد حُرم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٩٨١١)، والترمذي (٢٣٩٩).

قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»(١)، فلا عجب- إذن- أن يَسعد الذاكرون، ولكن العجب كيف يحيا الغافلون، قال سبحانه: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل:٢١]!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذِّكرُ منشورُ الولاية الذي مَن أُعطِيَه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قُوتُ قلوب القوم الذي متى فارقها، صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطَّلت عنه، صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي بينهم وبين علَّام الغيوب»(٢).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، أكبر من كل شيء، فبقدر إكثارك الذكر- مع مواطأة القلب للسان- تجد اللذة والسعادة، والأُنس والراحة، والسرور والحُبور، وقبل ذلك وبعده تجد الثواب العظيم، والفضل الجزيل عند الله يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤١، ٤٢]، ولنا في رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أُسوة حسنة، وهو الذي قال: «**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(٣).

فأَكْثِرْ عبدَ الله من ذِكر ربك، واعمل بوصية رسوله ﷺ فيما رواه عبد الله ابن بُسر: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٥).

بشيء أتشبث به، قال: **«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»**[(١)].

ومن أسباب السعادة وموارد السرور كذلك:

٥- **التحدُّث بنعم الله الظاهرة والباطنة**، فإن معرفتها والتحدث بها، يدفع الله به الهم والغم، ويحث العبد على الشكر، حتى ولو كان العبد في حالة مرض أو فقر؛ فإنه إذا قابل بين نِعم الله عليه التي لا يُحصى لها عد، وبينَ ما أصابه من مكروه، لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة.

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع: استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث حيث قال: **«انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»**[(٢)].

٦- **ومن الأسباب الموجبة للسرور: السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم،** وذلك بنسيان ما مضى من المكاره التي لا يمكن الإنسان ردها، ومعرفته أن اشتغال فِكْره فيها من باب العبث والمُحال، وأن ذلك حُمق وجنون!

٧- **أما مستقبل الحياة، فانظر إليه بعين التفاؤل والرضا**، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن أمرك كله بين يدي رب رحيم، هو أعلم بما يُصلحك من نفسك، ففوض الأمر إليه، ووطن نفسك على الرضا بكل ما يأتيك من قِبَله.

ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور: استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به: **«اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢).

لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[١].

٨- **أما الحاضر والواقع، فعليك- وأنت تطلب السعادة- أن تصنع من هذه الأحداث المؤلمة التي تحيط بك مكسبًا**، وأن تجعل منها مغنمًا، فاخرج من كل مصيبة بمغنم، واظفر من كل بلاء بنعمة، واقتنص من كل خسارة مكسبًا، واقتدِ بالأولين، فقد أُخرِج النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ من مكة، فأقام في المدينة دولةً ملأت سَمْع التاريخ وبصره، هذه الدولة هي التي نتفيأ ظلالها إلى يوم الناس هذا.

وسُجن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُٱللَّهُ وجُلد، فصبر واحتسب، وانتظر من الله ﷻ الأجر والثواب، فخرج في هذه المحنة من الدنيا وهو إمام أهل السنة والجماعة!

وكذا حُبس غيره من العلماء، فخرجوا من حَبسهم بأَنْفَس تصانيفهم التي لا يزال العالم الإسلامي يستخرج من دُررها وكنوزها.

لقد أصابت حُمى الموت مالكَ بن الريب، فأرسل قصيدته الرائعة الذائعة التي يرثي فيها نفسه.

وهكذا أُقعد ابن الأثير، فصنف (جامع الأصول)، و(النهاية)، وهي من أشهر وأنفع كتب الحديث.

ولما نُفي ابن الجوزي من بغداد، جود بالقراءات السبع وهو في عشر الثمانين من عُمره، رحم الله تعالى الجميع.

واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكارًا فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا، فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).

واجعل الأمور النافعة نصب عينيك، واعمل على تحقيقها، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن، واستعن بالراحة الخفيفة وإجمام النفس على إنجاز الأعمال المهمة.

أيها المؤمن! اسعد في هذه الحياة بطاعة الله، فلا يسعدك مثل طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واعلم أن الحياة عرَض زائل يأكل منها البَر والفاجر، وهي منغصة اللذات، كثيرة التبعات، متقلبة الأطوار، فلا تقيم على حال من السرور أو الأكدار، وفي الحديث: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ، وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»[1]، فَكُنْ على هذا النحو ذاكرًا شاكرًا، عابدًا صابرًا، تلقَ من النعيم في هذه الحياة ما يُؤهلك للنعيم في الحياة الأخرى.

وإذا تعرض لك البلاء، أو أعرضَتْ عنك الدنيا، أو تجهم لك الخلق، أو أُخِفت في الله أو أُوذيت، ففي كل ذلك قل: حسبنا الله ونعم الوكيل، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤].

إلهنا وسيدنا ما أكرمك! إن كانت الطاعات فأنت اليوم تبذلها، وغدًا تقبلها! وإن كانت الذنوب فأنت اليوم تسترها، وغدًا تغفرها! فنحن من الطاعات بين عطيتك وقبولك، ومن الذنوب بين سترك ومغفرتك!

اللهم فارزقنا الرضا بعد القضاء، وبرد العيش قبل الموت وبعد الموت، الخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الرؤوف الرحيم.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

البصيرة العشرون
في تدبر كتاب الله

أمَر الله بتدبر القرآن، وحض عليه، وندب إليه في آيات كثيرة من كتابه، فقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩].

يقول الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبرهم تعالى أنه أنزل كتابه ليدبروا آياته بعقولهم، ويتذكروا ما قال بألبابهم، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [سورة ص:٢٩]، فسماه بالبركة ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة، وينالون باتباعه الزلفى والكرامة، ثم قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة ص:٢٩]، فأخبر أنه أنزلهُ للتذكر والتفكر فيه، وخص بالتفكير والتذكر أهل العقول أولي الألباب»[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية... ومن لم يكن

---

(١) فهم القرآن، للحارث المحاسبي (ص٢٧٥).

له علم وفهم، وتقوى وتدبر- لم يدرك من لذة القرآن شيئًا»(١).

وهي كلمة عظيمة، تؤكد على خطورة الإعراض عن تدبر القرآن وفهمه، وإن في ذلك حرمانًا من لذة المناجاة، عياذًا بالله.

هكذا تدبروا القرآن:

كان ممن وقع في حادثة الإفك: مسطح بن أثاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قريبًا لأبي بكر، وكان أبو بكر ينفق عليه من ماله لقرابته وفقره، فلما وقع منه في حق الصِّديقة ما وقع، قال أبو بكر: «والله، لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة».

ثم لما تُلِيَ على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا»(٢).

هكذا كانوا يتدبرون القرآن، يتدبرونه علمًا وعملًا، ويتمثلونه في واقع حياتهم، وينطلقون منه في قراراتهم، ويُقدمونه على كل ما سواه.

ومن حرصهم على التدبر: ما روي عن عكرمة أنه قال: «جئت ابن عباس يومًا، وإذا هو يبكي، والمصحف في حجره، قال: فأعظمتُ أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس جعلني الله فداك؟ قال: هؤلاء الورقات، وإذا هو في سورة الأعراف، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ١٥٥) باختصار.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ ﴾ [الأعراف:١٦٥]: أليم وجيع.

قال: فأرى الذين نهوا نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها، فلا نقول شيئًا.

قال: قلت: أي، جعلني الله فداك، قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم، وقالوا: لم تعظون قومًا الله مهلكهم.

قال: فأمر لي، فكسيت بُرْدين غليظين»[١]؛ فرحًا بما فتح عليه من فهم في كتاب الله، فهكذا كان تأثرهم بالقرآن، وهكذا كان فرحهم بالقرآن، وهكذا كان حرصهم على تدبر القرآن.

كيفية التدبر:

فإن قال قائل: كيف نتدبر القرآن الكريم؟ كيف ننتفع بآي الذكر الحكيم؟

فالجواب في نقاط:

أولًا: العيش في ظلال القرآن:

فلا بد لمن أراد أن يتدبر القرآن أن يعيش في ظلال آياته، وأن يحمل هَمَّ العمل بعد العلم، فالتدبر هو قائدك إلى العمل، وسائقك إليه.

وعلى تالي كتاب الله تعالى أن يتصور أجواء الحياة التي نزل فيها القرآن، وأن يستحضر حال النبي ﷺ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند نزول الآيات، قوةً وضعفًا، أمنًا وخوفًا، كثرةً وقلةً.

وأن يتخيل الظرف الزماني والمكاني، كأن يتخيل حالتهم عند نزول سورة

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤٢).

المسد وهي تُبشر سيدًا من سادات قريش بالنار، أو تتوعد الآيات جملتهم بالنار، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وعليه أن يتصور حالتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين عاتبهم الله ﷻ بعد غزوة أُحد على قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، فقال لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

فيقرأ القرآن بنفسية مَنْ أنزل عليهم القرآن حتى ينتفع كما انتفعوا، ويتأثر كما تأثروا، وحتى تنفتح له آفاق جديدة من العلم والعمل، وحتى يهتدي للعمل بالقرآن في واقعه وحياته، فبذلك يفتح الله تعالى عليه بما شاء من المعاني الإيمانية، والفتوحات الربانية.

ثانيًا: تفهُّم معاني القرآن:

المرحلة الثانية: أن يجتهد الإنسان في الفهم عن الله، وتفهم معاني كتابه الذي أنزله باللسان العربي المبين؛ ليفهم الناس عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

وتعلم المعاني أولى من تعلم الحروف، فبغير تعلم معاني القرآن لا يمكن تدبره، ولا التلذذ به، ولا العمل بما فيه، وإلى هذا توجهت عناية السلف الصالحين، بل هكذا كان منهج سيد المرسلين في تربية أصحابه.

يقول جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة،

فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا»[١].

وضم النبي ﷺ ابنَ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلى صدره، ثم قال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ**»[٢].

وفي رواية: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ**»[٣].

والحكمة هى الفهم عن الله، أو هى الفهم في كتاب الله، بل دعا له النبى ﷺ بتحصيل أشرف العلوم، وهو علم تأويل القرآن ومعانيه، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كنت في بيت ميمونة ابنة الحارث، فوضعت لرسول الله ﷺ طهوره، فقال: «**مَنْ وَضَعَ هَذَا؟** فقالت ميمونة: عبد الله، فقال: **اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّين، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[٤].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»[٥].

اجتهاد السلف في فهم معاني القرآن:

وقد نُقل عن السلف من لدن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ اجتهاد عظيم في باب فهم القرآن، وتعلم معانيه.

فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»[٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧٩٩)، والبيهقي في الشعب (٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥)، ومسلم (٢٤٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٦).
(٤) أخرجه أحمد (٣٠٣٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٨٨٧).
(٥) زاد المسير، لابن الجوزي (١/ ٣).
(٦) أخرجه ابن جرير (١/ ٧٤).

ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله الذي لا إله غيره، ما أُنْزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبتُ إليه»(١).

وكان يقول: «كان الرجل منَّا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»(٢).

بل كان الواحد منهم تمر به الآية من كتاب الله، فيتفكر فيها حتى تمضى عليه ليلته، لا يستطيع تجاوز ما أشكل عليه في كتاب الله حتى يفهمه ويعلمه، فعن المطلب بن عبد الله قال: «قرأ ابن الزبير آيةً، فوقف عندها، أسهرته حتى أصبح، فلما أصبح قال: مَن حبرُ هذه الأمة؟ قال: قلت: ابن عباس، فبعثنى إليه فدعوته.

فقال له: إني قرأت آية كنت لا أقف عندها، وإني وقفت الليل عندها فأسهرتنى حتى أصبحت: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

فقال ابن عباس: لا تسهرك، فإنا لم نعن بها، إنما عنى بها أهل الكتاب، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فهم يؤمنون ههنا، وهم يشركون بالله»(٣).

بل كانوا يختمون كتاب الله الختمة تلو الختمة، يتفهمون كتاب الله ويتدارسونه.

يقول مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد عرضت القرآن على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، أقف عند كل آية أسأله فيم أُنْزلت، وفيم كانت»(٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).
(٢) أخرجه ابن جرير (١/ ٧٤).
(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٤٩)، وابن جرير (٨/ ٥١٨).
(٤) أخرجه الدارمي (١١٦٠)، والحاكم (٣١٠٥).

يقول رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يفهم القرآن ويتفقه فيه من كان نصب عينه، ووجهة قلبه في تلاوته في الصلاة، وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله، وحكمة تدبره، من علم ونور، وهدًى ورحمة، وموعظة وعبرة، وخشوع وخشية، وسنن في العالم مطردة»(١).

ثالثًا: سبل وطرائق تدبُّر الكتاب:

لتدبر كتاب الله تعالى وحسن تفهمه طرق وأسباب، نوجزها فيما يلي:

الأول: حسن الإنصات والاستماع:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

فأول سبب وسبيل إلى تفهم القرآن: هو أدب الاستماع بحضور القلب، وسكون الجوارح، وغض البصر، وإصاخة السمع، والعزم على العمل؛ لذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أول العلم: الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»(٢).

الثاني: حسن السؤال:

فلربما لم يبلغ الفهم مداه، ولم يصل إلى منتهاه، فلا يكون بلوغ ذلك إلا بالسؤال، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فالسؤال عن العلم دأب أهل الحرص والاجتهاد، كما قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سأله عن أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ**

---

(١) تفسير المنار، لرشيد رضا (١/ ٨).

(٢) الحلية، لأبي نعيم (٧/ ٢٧٤)، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٧٦٠).

يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاس بشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، أَوْ: «**نَفْسِهِ**»(١).

وبالإقبال على أهل العلم، وحسن سؤالهم، بلغ مَن بلغ، فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيل له: كيف أصبتَ هذا العلم؟ قال: «بلسان سَؤُول، وقلب عقول»(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]؛ إذ السائلون هم المنتفعون بالآيات والعبر، بخلاف المعرضين أو المستكبرين.

وإن مِن هجر القرآن، هجرَ تدبره، وهجرَ السؤال عنه وعن معانيه، وإنه لمن القبيح بالرجل أن يحمل القرآن في صدره، ثم هو لا يدري ما آمره، ولا زاجره، ولا محكمه، ولا متشابهه، ولا ناسخه، ولا منسوخه.

الثالث: حسن الترتيل:

قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، قال مجاهد: «قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: على ترتيل»(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، فعلى القارئ ألا يعجل بالقرآن، وأن يتمهل فيه، وينبغي أن يتأنى ويترسل في القراءة.

وقد نهى النبي ﷺ أن يُقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقال: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، لَمْ يَفْقَهْهُ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٩٠٣)، والبيهقي في المدخل (٤٢٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٣٥)، وأبو داود (١٣٩٤)، والترمذي (٢٩٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرابع: تكرار الآي:

فمن سبل التدبر ومسالكه: تكرار الآيات، والوقوف عند المعاني، ومخاطبة القلب بها، فقد ثبت أن النبي ﷺ صلى الصبح بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]، يُكررها في الركعتين، وكان هذا في سفر[1].

وإن ثبت هذا في الفرض، فهو في النفل أشد ثبوتًا، قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يُرددها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]»[2].

وكما كان هذا هدي رسول الله ﷺ، فقد كان هدي أصحابه من بعده، فمنهم من قام الليل بآية، فهذا تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحيى الليل بآية عند المقام، يقول مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لى رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيتُهُ ذات ليلة حتى أصبح، أو كَرَب أن يصبح، يقرأ آيةً من كتاب الله، ويركع ويسجد ويبكى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]»[3].

فينبغى لمن أراد أن يتدبر القرآن أن يعمل هذه المراحل، وأن يعمل بها في تلاوته وقراءته، وتفهمه وتدبره، وعلمه وعمله.

علمنا الله تعالى من القرآن ما يشرح صدورنا، وينير حياتنا، ويضيء طريقنا إليه، ورزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيه عنا، وجعله شافعنا يوم القيامة، وقائدنا إلى رضوان الله وجنته، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والبيهقي في الكبرى (٤٠٢١).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤٧١٧)، وفي الشعب (١٨٨٠).

(٣) السنن الكبرى، للنسائي (١١٨٣٣)، والزهد، لابن المبارك (٩٤).

البصيرة الحادية والعشرون

في تعظيم رب العالمين

إن العظيم سبحانه قد أمر بتعظيمه وإجلاله وتنزيهه وتقديسه، وشرع لتعظيم قدره شعائر وشرائع، فالصلاة تعظِّم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعظَّم الله تعالى فيها بالركوع والسجود والقراءة والذكر، ونحو ذلك.

قال ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّ وَجَلَّ»(١)، ولهذا يقال في الركوع: «سبحان ربى العظيم»، وعلامةُ الذل والقرب: السجود، فيقال فيه: «سبحان ربى الأعلى».

ثم إن الله تعالى أمر بتعظيم شرائعه وشعائره وحرماته، وهذه الشعائر والشرائع كل ما يجب أداؤه واحترامه وحفظه وصيانته ورعايته، والتعظيم والرعاية لهذه الشعائر هو العلم بوجوبها، والقيام بحقوقها، وقد قال جل من قائل عليمًا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩).

وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

هذا، وإن من حق الله تعالى على عباده أن يُعظموا حرماته؛ استشعارًا لهيبته، وخضوعًا لعظمته، وإذعانًا لجلاله، وخوفًا من غيرته تعالى أن تنتهك محارمه، وقد قال ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَنَ»(١).

وفي رواية قال: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»(٢).

حال المؤمنين في تعظيم رب العالمين:

إن المؤمن يخاف الذنوب، ويحذر منها، فهو حي العاطفة، متوقد الإحساس، يراقب الله في خلوته كما يراقب الله تعالى في جلوته، ينظر إلى رقابة الله تعالى عليه في علانيته، كما ينظر إلى رقابة الله تعالى عليه في سره، يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يوشك أن يقع عليه.

أما المنافق والكافر، فعلى الضد من هذا -عياذًا بالله-، فيجترئ على الذنوب، ويتمدح بها، ويراها مغنمًا!

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر ليرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٩٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

ثم إن هؤلاء المنافقين إذا خشوا الفضيحة، وسوء الأحدوثة، استَخْفوا من الناس بذنوبهم، وبارزوا الله بها في خلواتهم!

وقد قال الله تعالى في ذَمهم، وبيان قبح صنيعهم: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨]، هذه حالتهم، وتلك حقيقتهم، يستحيون من الناس، ولا يستحيون من الله!

أما أهل الإيمان والتقى، وأهل الإخلاص والمراقبة، فهم أبعد شيء عن هذا الحال، فلا يبالون إلا بنظر ذي الجلال والكمال.

يقول عبدوس تلميذ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعتُ أبا حامد الخلفاني يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار، أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي ... أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وتُخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي ... وَبِالعِصْيَانِ تَأْتِينِي

فقال: أَعِدْ عليَّ، فأعدتُ عليه، فقام ودخل بيته، ورد الباب، فسمعتُ نحيبه من داخل البيت، وهو يقول:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي ... أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِيني
وتُخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي ... وَبِالعِصْيَانِ تَأْتيني(١)

هكذا كان خوفهم من ربهم، وهكذا كانت هيبتهم وتعظيمهم له.

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٢٠٢).

هذا أمين هذه الأُمة أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «وددتُ أني كنت كبشًا، فيذبحني أهلي، يأكلون لحمي، ويحسون مرقتي»[١].

أما حياؤهم من الله، فحدِّث ولا حرج، هذا الفضيل بن عياض رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقف بعرفة، والناس يدعون، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، قد حال البكاء بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب، رفع رأسه إلى السماء، وقال: «واسوأتاه منك وإن عفوت»[٢]، واسوأتاه من الوقوف بين يديك يوم القيامة، واخجلاه من قبيح الذنوب، وسيئ الاكتساب، حياءً من الله تعالى وإن عفا وغفر!

وأبو لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأله بنو قريظة وكان حليفًا لهم في الجاهلية: ماذا يفعل بهم رسول الله ﷺ وقد خاسوا بالعهد ونقضوه، قاموا إليه يجهش النساء والصبيان، فرقَّ لهم، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، ولم يتكلم، فما لبث بعد أن فعل ذلك حتى عرف أنه قد خان الله ورسوله!

يقول أبو لبابة: «فوالله، ما زالت قدماي ترجفان حين عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله ألا يطأ بني قريظة أبدًا، ولا يراني في بلد خنتُ الله ورسوله فيه!

فلما بلغ رسولَ الله خبره، وكان قد استبطأه، قال: **أَمَا لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ مَا أَنَا بِالَّذِي يُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**[٣]،

(١) أخرجه معمر في جامعه (٢٠٦١٥)، وأحمد في الزهد (١٠٢٨).
(٢) لطائف المعارف، لابن رجب (ص٢٨٥).
(٣) دلائل النبوة، للبيهقي (٤/ ١٥).

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]»(١).

فالشَّاهد من هذا: تعظيمهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لحرمات الله تعالى في السر والعلن.

دلائل وأمارات تعظيم الله ﷻ:

وهذا التعظيم والإجلال له معايير، منها:

أ- الخوف من الذنوب والسيئات:

وقد مضى ما يدل على شدة خوفهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «يا صاحب الذنب، لا تأمنن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته:

قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب، أعظم من الذنب!

وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك، أعظم من الذنب!

وفرحك بالذنب إذا ظفرت به، أعظم من الذنب!

وحزنك على الذنب إذا فاتك، أعظم من الذنب إذا ظفرت به!

وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا عملته!»(٢).

ب- تعظيم دين الله تعالى وشرعه:

من معايير تعظيم شعائر الله تعالى وحرماته: الإقبال على دين الله تعالى، وتعظيم

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٩٨٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٠٦).

(٢) الحلية، لأبي نعيم (١/ ٣٢٤).

أهله؛ إذ لا شك أن تعظيم الدين بأَسْره، وتعظيم تعلمه وتعليمه، والدعوة إليه، وتعظيم أهله مما يدل على تعظيم المسلم لشعائر الله ﷻ.

وتعظيم الأمر والنهى إنما ينشأ عن تعظيم الآمر الناهى سبحانه، فمَن قَدَر الله حق قدره، أقبل بكُليته على أوامره، واجتنب مناهيه.

وإن من أول ذلك: الحرص على تعلم الدين، ومعرفة ما يرضى رب العالمين، ولنسأل أنفسنا: كم من والد ووالدة حرصوا على تعليم أولادهم شعائر الدين، من صلاة وزكاة وصيام وحج وتلاوة للقرآن وذكر!

وكم من أب وأم ينويان الاستمرار في هذه السيرة أبدًا مع أطفالهم وأبنائهم!

وكم أسرة تحرص على تعليم أبنائها لغة القرآن الكريم!

ج- تعظيم كتاب الله:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق، وتنزيهه، وصيانته. قال القاضى عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم إن من استخف بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما، أو جحد حرفًا منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر، فهو كافر بإجماع المسلمين»(١).

وتعظيم كلام الله تعالى يكون بتجويده وتلاوته، وأولى من ذلك أن يعنى الإنسان بإقامة حدوده، والوقوف عند نواهيه، وامتثال أوامره.

وإن مما يتنافى مع تعظيم هذا الكتاب العزيز: استعمال الأوراق والصحف والمجلات التى فيها آيات القرآن الكريم وأسماء الله العظيم فيما يمتهن من الأمور، كأن يجمع فيها ما لا قيمة له من القمامة ونحوها، أو أن يؤكل أو يشرب

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي (ص١٦٤).

على مثل هذه الأوراق، أو يلقى بها في أماكن القمامة، عياذًا بالله.

د- تعظيم المقدسات:

إن تعظيم مُقدسات الإسلام من أمارات تعظيم الحرمات؛ سواء كانت هذه المُقدسات مُقدسات في الأمكنة؛ كالحرم المكى والمدنى والمسجد الأقصى، أو كانت مُقدسات في الأزمنة؛ كرمضان وعرفة وليلة القدر، ونحو ذلك من الأزمان التى فضَّلها الله تعالى وشرَّفها.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

هـ- إفشاء السلام بين المؤمنين:

إن من تعظيم شعائر الله كذلك: إفشاء السلام بين المسلمين، فإن النبى ﷺ أمر بإفشائه، وحثَّ عليه، وجعله من شعائر المسلمين التى يتميزون بها عن غيرهم، والتى تدعو إلى التحابب والتآلف فيما بينهم، فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم، مَن عرفت، ومَن لم تعرف، والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفةِ المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل المِلل، مع ما فيه من رياضة

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤).

النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين»[١].

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يُوفقنا إلى تعظيم حرماته، وإلى قدرها حق قدرها، وأن يجعلنا له ذكَّارين، له شكَّارين، له منيبين، إليه أوَّابين، وعليه متوكِّلين، ولشريعته معظِّمين، إنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٦).

البصيرة الثانية والعشرون

في فقه قبول العمل

لقد تقرر في محكمات الوحى أن الأعمال الصالحة هى سبب النجاة في الدنيا والآخرة، وأن الحسنات المقبولة هى طريق الفلاح، وهى سبب دخول دار المتقين، قال سبحانه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

فأعظم الحسنات: توحيد رب الأرض والسماوات، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء:١٢٤].

وأعظم السيئات: الشرك بالله العظيم، وهو سبب البوار والخسار عياذًا بالله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠]، والسيئة هنا هى الشرك والكفر، كما رواه الطبري عن جملة كبيرة من الصحابة والتابعين[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

---

(١) تفسير ابن جرير (١٨/ ١٣٩ - ١٤١).

وكما أن الحسنات عمومًا سبب لدخول الجنة وحسن الثواب، فإن السيئات عمومًا سبب لدخول النار وبئس القرار.

هكذا يُقرر القرآن، فيقول تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٢ - ٤٥]، ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤].

وبالجملة، فإن القاعدة هي قول الله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

وقوله ﷻ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٥٢]، فالجزاء الأخروي مرتبط بالعمل الدنيوي.

الأعمال بين القبول والحبوط:

إن العلاقة بين الحسنات والسيئات، وبين الثواب والعقاب ليست علاقة حتمية طردية، ولا هي من جنس العلاقات الحسابية الدنيوية، إنها علاقة ربانية عادلة تنبنى على ما قام في القلوب من المعاني قبل أن تنبنى على ما قامت به الجوارح من الظواهر والمباني، كل ذلك بميزان عدل، وحساب قسط، لا يتطرق إليه شيء من خلل، ولا ينطلى عليه خداع أو خَتَل.

ذلك أن الأثر الصالح للأعمال ينشأ عن قبولها من الرب ذي الجلال، ومقام القبول لا يناله كل أحد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦].

والعبادة المتقبلة قد يكون قبولها والثواب عليها على درجات، قال سبحانه على لسان أُم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران:٣٥]، ثم جاء بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].

ويقابل القبول: الحبوط، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

ومحبطات الأعمال لا تنحصر في الشرك والكفر عياذًا بالله، لكن الحبوط في الشرك الأكبر حبوط كلي لسائر الطاعات، وهو فيما دون ذلك من محبطات الأعمال حبوط جزئي.

فمن محبطات الأعمال: سوء الأدب مع الله ورسوله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

ومنها كذلك: الرياء، وهو الشرك الأصغر، والمن والأذى في الصدقات، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

من فقه القبول:

أ- الفرق بين الصحة والقبول:

ينبغي أن يُعلم أن كل مقبول من الأعمال صحيح، وليس كل صحيح يكون مقبولًا، فالصحة تعني: الإجزاء، وإسقاط الطلب والتكليف بالعبادة، فمَنْ أتى بالصلاة صحيحةً، فقد سقط عنه الطلب بإعادتها، أما القبول فهو أمر وراء ذلك، وهو ترتُّب الثواب على العبادة في الآخرة.

والصحة تُناط بالأقوال والأعمال التي يمكن ضبطها والحكم عليها، فمن أتى بالصلاة تامة الأركان والشروط، سليمة من المبطلات والموانع، فقد صحت صلاته، أما القبول فيُنَاط مع أعمال الجوارح بأحوال القلوب التي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدليل على انتفاء التلازم بين الصحة والقبول: قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(١)، فالصلاة على صحتها في الدنيا لم تتقبل، ولم يُثَبْ عليها، فلا تلازم- إذًا- بين القبول والصحة.

ب- خفاء القبول:

ومن القواعد المهمة في هذا الباب: إن القبول أمر خفي، فمع أن القبول من أوصاف العبادة وأحكامها إلا أن العلماء لم يفصِّلوا له أحكامًا كما فصَّلوا في سائر الأحكام الوضعية؛ ذلك أن أحكام القبول لا تدخل تحت معرفتنا وعلمنا.

فليس الحكم على العبادة بالقبول أو الرد راجع إلى علم الفقيه، أو صنعة الأصولي، بل مرد ذلك إلى رب العالمين لا شريك له، فلا يَعرف قبول الأعمال وردها إلا الله جل في علاه.

وقد رأينا أنبياء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يبتهلون إلى الله بطلب القبول، وهذا يدل على خفائه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقال سبحانه على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم:٤٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وقال ﷺ لما أراد أن يذبح أضحيته: «**باسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ**»(١).

وعن أُم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»(٢).

وربما زجر النبي ﷺ عن القطع بالقبول كما ورد عن أُم العلاء الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها في عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تُوفي: «رحمة الله عليك أبا السائب! فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لي النبي ﷺ: **وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟** فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ- وَاللهِ- الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِهِ**»(٣).

خوف الصالحين من ردِّ أعمالهم:

ولما كان القبول خفيًّا، فقد أقلق الصالحين، وأخاف قلوبهم أن يكونوا ممن يرد عليهم عملهم.

ذلك أن العبد الرباني هو الذي يبذل جهده، ويستفرغ وُسعه، ثم يرجو القبول، ويخاف الرد، كما قال تعالى في وَصْف السابقين من الصالحين: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

وقد سألت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقالت : «أهُمُ الذين

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه أحمد (٢٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **لا يا بنْتَ الصِّدِّيق، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١]»(١)، فالمقام بين الخوف والرجاء هو سبيل المؤمنين والمتقين.

قال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسبيل المؤمنين وطريق العقلاء من العلماء: لزوم الاستثناء، والخوف والرجاء، لا يدرون كيف أحوالهم عند الله، ولا كيف أعمالهم، أمقبولة هي أم مردودة.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وأخبر عن عبده الصالح سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في مسألته إياه: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ [النمل:١٩]، أفلا تراه كيف يسأل الله الرضا منه بالعمل الصالح؛ لأنه قد علم أن الأعمال ليست بنافعة -وإن كانت في منظر العين صالحةً- إلا أن يكون الله ﷻ قد رضيها وقبلَها»(٢).

وكلما كان العبد من الله أقرب وبه أعرف، كان له أتقى ومنه أخوف، فخوف الصالحين مع قلة ذنوبهم أشد من خوف المذنبين.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلما كان العبد أقرب إلى ربه، كان أشد له خشيةً ممن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، والأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، وإنما كان خوف المُقربين أشد؛ لأنهم يطالَبون بما لا يطالَب به غيرهم، فيراعون تلك المنزلة»(٣).

---

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٨٧١).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣١٣).

فخوف الصالحين من عدم قبول الأعمال، وربما خافوا من نقصان المنزلة والدرجة، وربما خافوا من سوء العاقبة وحرمان التوبة، أو ألا يكون أحدهم ممن شاء الله له المغفرة والرحمة.

ولهذا، كانوا لا يعتدون بالطاعة إذا لم يصحبها القبول، ولما كان القبول خفيًّا، صارت قلوبهم على وجل منه، بل بلغ بهم خوف الرد أنْ قال قائلهم: «لأنْ أعلم أن الله تقبل منى مثقال حبة من خردل، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»(١).

وصار الصالحون يعتقدون أنه لولا جميل ستر الله تعالى، لم يكن عمل أهلًا للقبول، ذلك أن المقبول من الأعمال هو الذي احتوى سر الإخلاص، وغاية الحضور، وهذا في غاية الندور، ثم ينضاف إلى ذلك تمام الاتباع، وصدق الموافقة، وهذا لا يكاد يتأتى على وجهه، فلم يبق إلا أن القبول محض مِنَّتِه تعالى ورحمته.

ولهذا، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، فعدى القبول بـ «عن» التى تدل على التجاوز، ولم يقل: «نتقبل منهم»، فكأنه قال: أولئك الذين نتجاوز عنهم في أعمالهم، فنتقبلها منهم.

وفي الحديث: «**لَا يُدْخِلُ أَحَدَكُمُ الجَنَّةَ عَمَلُهُ، وَلَا يُنَجِّيهِ عَمَلُهُ مِنَ النَّارِ**، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **وَلَا أَنَا، إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ**»(٢).

وكيف يدعي إنسان أنه مستحق للمثوبة والكرامة، وقد قيل له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والتقوى أمر خفي في القلوب، كما أخبر النبي ﷺ،

(١) الزهد، لابن المبارك (٢/ ١٩)، حلية الأولياء، لأبي نعيم (٢/ ١٧) من قول فضالة بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٧) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فقال: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**»، وأشار إلى صدره ثلاث مرات[(١)].

وكيف يجزم الإنسان بقبول عمله وقد خصص الله القبول بالمُتقين، والإنسان ما يدري هل بلغ التقوى أو لا؟ فضلًا عن أن يعلم بلوغه حق التقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

إن قبول الأعمال وتحصيل الدرجات أمر خفى، يرجع بالدرجة الأولى إلى مكنونات الصدور، ودواخل القلوب، ثم يرجع بعد ذلك إلى أعمال الجوارح، كما رتب النبى ﷺ، فقال: «**إن اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[(٢)].

وكل مسلم مخاطب بقول الله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٤].

الأعمال سبب للثواب، لا ثمن له:

وههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن الجنة إنما تُدْخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًّا بدخولها، وإن كان سببًا لذلك، ففرق بين السببيَّة والثمنيَّة، فإيمان المؤمن سبب للجنة، ولكنه لا يستحق به الجنة وجوبًا، بل بفضل الله ورحمته!

ولهذا أثبت الله تعالى دخول الجنة بسبب الأعمال، فقال سبحانه: ﴿**وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:٤٣]، ونفى رسول الله ﷺ دخولها ثمنًا للأعمال بقوله: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توجيه ذلك: «ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ أَهْلَ الجنةِ إِذَا دَخَلُوهَا، نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ**»(١).

والثاني: أن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلًا للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإنْ لم يكن مستقلًّا بحصوله.

وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله: «**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**»(٢).

ومن عرف الله تعالى، وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه- عرف ذلك، وجزم به، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المستعان»(٣).

فإذا شهد العبد من نفسه أنه لم يعرف ربه في عبوديته، ولم يوفِّه حقه، ولا قريبًا من حقه- علم تقصيره، ولم يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تفريطه وتقصيره، فحاجته إلى العفو أعظم من حاجته إلى الثواب!

فالعبد الصالح المطيع في حاجة إلى الاستغفار، وسؤال العفو والعافية من الله، أكثر من حاجته أن يسأل الله ﷻ الثواب، فإن الله تعالى إن عاقبه على ذنوبه هلك، أما حسناته المقبولة، فلن يضيع منها شيء.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) حادي الأرواح، لابن القيم (ص٨٨).

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ   كَـلَّا وَلَا سَـعْيٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا   فَبِفَضْلِهِ وَهْـوَ الكَـرِيمُ الوَاسِعُ(١)

فلو حاسب الله سبحانه- جل في علاه- العباد بالعدل، لهلكوا جميعًا، ولهذا كان حساب أهل الإيمان بالفضل لا بالعدل، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨].

وعن ابن أبي مليكة: «أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: **مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**، قالت عائشة: فقلت: أَوَ ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]، قالت: فقال: **إِنَّمَا ذَلِكَ العَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ**»(٢).

وعن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»(٣).

ذُنُـوبِي إِنْ فَكَّـرْتُ فِيهَـا كَثِيـرَةٌ   وَرَحْمَـةُ رَبِّـي مِـنْ ذُنُـوبِي أَوْسَـعُ
ومَـا طَمعي فِي صَالِحٍ قَدْ عَمِلْتُه   وَلَكِنَّنِي فِـي رَحْمَـةِ اللهِ أطمـعُ(٤)

هكذا فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، فهذا يدل على أن الأعمال ثمن للجنة.

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٢/ ١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).
(٤) الزهر الفاتح، لابن الجزري (ص٣٨).

فالجواب: إن الجنة والعمل كليهما من فضل الملك سبحانه، فلهذا يقول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، فلما اعترفوا بالحق، جاءهم نداء الحق: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فالباء في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢] ليست باء المقابلة والمعاوضة، وإنما هي باء السببية، فدخول الجنة بسبب الأعمال، ثم بسبب التوفيق إلى الأعمال، والهداية للإخلاص، وقبولها برحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا لأحب الأعمال إليك، وأن تجزينا عليها بأوفى الجزاء عندك، لن تطاع إلا بإذنك، ولن تعصى إلا بعلمك، تطاع فتشكر، وتعصى فتغفر، توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا ندامى ولا مفتونين، فاللهم عفوك في المحيا وعند الممات، وفي القبور عفوك وعند النشور.

يَا رَبِّ عَبْدُكَ قَدْ أَتَاكَ ... وَقَدْ أَسَاءَ وَقَدْ هَفَا
يَكْفِيكَ مِنْهُ حَيَاؤُهُ ... مِنْ سُوءِ مَا قَدْ أَسْلَفَا
حَمَلَ الذُّنُوبَ عَلَى الذُّنُوبِ ... المُوْبِقَاتِ وَأَسْرَفَا
وَقَدِ اسْتَجَارَ بِذَيْلِ عَفْـ ... ـوِكَ مِنْ عِقَابِكَ مُلْحِفَا
رَبِّ اعْفُ عَنْهُ وَعَافِهِ ... فَلَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ عَفَا

وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

البصيرة الثالثة والعشرون

في معية الله لأهل الإيمان

سبحان مَنْ هو أول فليس قبله شيء، وسبحان من هو آخر ليس بعده شيء، سبحان من هو ظاهر فليس فوقه شيء، سبحان من هو باطن فليس دونه شيء، لا تُضرب له الأمثال، وإنما تُضرب الأمثال لمَنْ له أمثال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وأما من لم يزل ولا يزال، فما للحس معه مجال، لا يقال له: كيف، والكيف في حقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا ادَّعى إنسانٌ علمه مُحال! سبحانه قال عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

متى كان المؤمن مع الله، كان الله معه، ومكَّن الله له! «**وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١).

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا ... فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ(٢)

المؤمن يوقن بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) من شعر صالح عبد القدوس، حماسة البحتري (ص٤٤٦).

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فسبحان مَنْ وسع سمعه الأصوات، فسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في ظلمة الليلة الليلاء.

وَإِذَا خَلَـوْتَ بِرِيبَـةٍ فِـي ظُلْمَـةٍ والـنَّفْسُ داعِيَـةٌ إِلَـى الطُّغْيَـانِ
فَاسْـتَحِ مِـنْ نَظَـرِ الإلـهِ وقُـلْ لهـا إِنَّ الَّـذِي خَلَـقَ الظَّـلَامَ يَرانِـي(١)

أيها المؤمن، كن مع الله، يكن الله معك، كن مع الله، فهو الغنى وأنت الفقير، كن مع الله، فهو القوي وأنت الضعيف، كن مع الله، فهو العزيز وأنت الذليل.

كن مع الله، فهو مجيب الدعوات، وكاشف الكربات، والمصمود إليه في سائر الحاجات.

كن مع الله، فهو الذي يدعوك لدعائه وعبادته، ويدعوك بذلك إلى مغفرته وجنته، قال تعالى في محكم آياته: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويقول نَبينا ﷺ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٢).

إنه تعالى صاحب الباب الذي لا يغلق أبدًا، كل من سأله أجابه وأعطاه، فهذا حاله تعالى مع عبده: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]، أما حال العبد مع ربه، فكما قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

---

(١) نونية القحطاني (ص٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فنعوذ بالله من حال أهل الشرك والجحود!

إن من صدقتْ حاجتُه، واكتمل اضطرارُه، وتحقق فقرُه، وتوجه إلى ربه بالوحدانية، فإجابته قريبة قريبة!

أيها المؤمن، كن مع الله، يكن الله معك، تعرف إلى الله في الرخاء والسراء، يعرفك في الشدة والبلاء، واعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهو معك أينما كنت، وحيثما كنت!

أنواع المعية الإلهية:

واعلم أن معية الله لعباده على أنواع:

أ- المعية العامَّة:

وهى معية علم وإحاطة، تثبت أحكامها لجميع الخلق، فالله مع جميع خلقه بعلمه وإحاطته، لا تخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

فالله ﷻ مع كل عبد من عباده، لا تخفى عليه نجوى، بل لا يخفى عليه وسوسة العبد في نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق:١٦]، ولهذا فقد ذم الله المنافقين والغافلين، فقال:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

إذًا، فمعية الله بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره، ثابتة لجميع خلقه، ولا ينفك عنها عبد من عباده.

ب- المعية الخاصة:

وهي معية نصر وتأييد، ومعية توفيق وتسديد، تختص بعباد الله المتقين، وحزبه المفلحين، وأوليائه الصالحين، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويقول تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

هذه معية قرب تتضمن الموالاة والنصر على الأعداء، والحفظ من الخطر والبلاء، وهذه المعانى تتحقق للإنسان بحسب قوة إيمانه.

ج- معية أخص:

وهناك معية أخص من هذه الخاصة، وهى معية الله تعالى لبعض عباده المرسلين، وأنبيائه المقربين، وهى أعلى درجات المعية، فلا تتحقق إلا لأحب عباد الله إليه، وأكرمهم عليه.

تلك المعية التى ثبتت لموسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ حين قال الله لهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

ومنها تلك المعية التي كانت لرسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، يقول سبحانه، وجل في علاه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ونظير هذا الموقف: ما حصل لنبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين هرب ببني إسرائيل من فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

فمن كان الله معه، فالنصر حليفه، والتوفيق نصيبه، والفلاح سبيله وطريقه، فقط كن مع الله في سَيْرك إلى الله.

وعليك بوصية رسول الله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين قال له: **«يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»**[1].

أيها المؤمن، كن مع الله في كل حال، كن مع الله في شغلك بالله.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكراكَ تَشغلُها	عَنِ الشَّرَابِ وتُلْهيها عن الزادِ
لها بوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ به	ومِنْ حَديثِك في أعْقابِها حَادِ

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦).

إِذَا اشْتكَتْ من كَلالِ السيرِ أَوْعدَهَا رُوحَ القُدُومِ فتَقْوى عِنْدَ ميعادِ[١]

إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بزخرفها، فافرح أنت بفضل الله، وإذا تعرَّف الناس إلى أهل الجاه في هذه الحياة، فتعرَّف أنت إلى الله.

تعرَّف إلى الله بتدبرك لأسمائه وصفاته، وتعرَّف إلى الله بمعاملتك إياه في طريقك إلى الله.

وسيرُك إلى الله سيرُ البذل والتضحية، ففى طريق الله كم طارت من رقاب، وفي ذات الله كم تمزقت من أجساد، بل كم نُشر خَلق بالمناشير، وقُرضوا بالمقاريض، فصبروا في ذات الله!

هذا خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقدَّم لتضرب عنقه، وترمل نساؤه، ويُيتَّم أولاده في سبيل الله، فيرتجز قائلًا[٢]:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَي جَنْب كَانَ لِلهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْو مُمَزعِ

كم قَطع أُناس القفارَ والفيافي وهم يسيرون إلى الله، كم ركب أُناس أهوالًا، وصارعوا أمواجًا، وخاضوا بحورًا وأنهارًا وهم سائرون إلى الله!

كم من عين سهرت في طاعة الله، وكم من دمعة ذُرفت في خشية الله، وكم من مهجة بُذلت في سبيل الله!

عن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ، فآمن

(١) من شعر ابن القيم في روضة المحبين (ص٧٢)، وأصله لإدريس بن أبي حفصة، كما في ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (١/ ٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعضَ أصحابه، فلما كانت غزوة، غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاءهم، دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟

قالوا: قَسْم قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال: **قَسَمْتُهُ لَكَ**، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرْمَى إلى ها هنا- وأشار إلى حلقه بسهم- فأموت، فأدخل الجنة، فقال: **إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**.

فلبثوا قليلًا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتِيَ به النبي ﷺ يُحْمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: **أَهُوَ هُوَ؟** قالوا: نعم، قال: **صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ**، ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبَّة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: **اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

ومن أعجب ما في هذا الباب: قصة خيثمة بن الحارث، وابنه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فعن سليمان بن أبان: «أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر، أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعًا الخروج معه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما.

فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك.

فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا.

فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد وُد»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٠٩١)، والحاكم (٦٥٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٨٦٦)، وابن المبارك في الجهاد (٧٩).

أما خيثمة، فقد انتظر إلى العام القابل، فلما كانت غزوة أُحد، أتى رسول الله ﷺ، فقال: «عسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى فهي الشهادة، لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت- والله- عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرُزِقَ الشهادة.

وقد رأيتُ ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحَقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا، وقد- والله يا رسول الله- أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله بذلك، فقُتل بأُحد شهيدًا»[1].

هكذا كل مَن كان مع الله، كان الله تعالى معه، كل مَنْ سار إلى الله، متوكلًا على الله، كفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل ما أهمه، يقول تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:١٢٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

فتوكل على الله يا عبد الله، وأَخْلص لله، واعزِمْ على أن تطيع الله تعالى أبدًا، وأن تستشعر معيته دومًا، يكن الله تعالى معك، ويكفيك ما أهمك، ويغنيك عمن سواه.

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، وأغننا عمن أغنيته عنا، وارزقنا الشهادة في سبيلك مقبلين غير مدبرين، طائعين غير عاصين، وارزقنا

(١) ذكره الواقدي في المغازي (١/ ٢١٣).

البصيرة الرابعة والعشرون
في منزلة المرأة في الإسلام

المرأة بمكانة عظيمة في كتاب ربها، وسُنة نبيها، وسيرة سلفها؛ سواء أكانت أُمًّا، أم أختًا، أم بنتًا، أم زوجةً، بحيث لم تكرَّم قبل الإسلام ولا بعده كما كرمها ربها في الإسلام.

حال المرأة قبل الإسلام:

إننا حين نطلع على تكريم الإسلام للمرأة، لا يكمل فهمنا لهذا التكريم حتى نعرف واقع المرأة في الجاهلية، وكيف أهانت الجاهليةُ الوثنيةُ المرأةَ، وهذا ما يمكن إجماله في النقاط التالية:

أ- وَأْد البنات:

لقد كانت البشرى بميلاد الأنثى بليةً عند أهل الجاهلية ورزيةً، حتى قال السميع العليم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

قال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء؛ خوفًا من الفقر عليهم، وطمع غير الأكْفَاء فيهن!

وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَت له بنت، وأراد أن يستحييها، ألبسها جُبةً من صوف أو شعر، وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية.

وإذا أراد أن يقتلها، قال لأُمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر، قال لها: انظري إلى هذه البئر، فيدفعها من خلفها في البئر، ثم يُهيلُ على رأسها التراب حتى تستوي البئر بالأرض، فذلك قوله ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]»(١).

فهذا حال المرأة في الجاهلية- عياذًا بالله-، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

بل كان احتقار المرأة ووَأْدها يقع من الأمهات كما يقع من الآباء، فروي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، فكان أوان ولادها، حفرت حفيرةً، فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جاريةً، رَمَتْ بها في الحفيرة، وإن ولدت غلامًا، حبسته!»(٢).

ب- توارث الزوجات:

من إهانة الجاهلية للمرأة: أن أُبيحَت حلائل الآباء للأبناء بعد الموت، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) تفسير البغوي (٥/ ٢٥).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٣٩).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أهل الجاهلية يُحرمون ما حرم الله، إلا أن الرجل كان يخلف على حليلة أبيه، ويجمعون بين الأختين»(١).

ج- حرمان النساء من الميراث:

وكان من إهانة الجاهلية للمرأة: حرمانها من الإرث.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أهل الجاهلية لا يورثون المرأة شيئًا، ولا الصبى شيئًا، وإنما يجعلون الميراث لمن يحترف، وينفع، ويدفع»(٢)، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسَب ما فرض الله تعالى، لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء»(٣).

د- ترك مساكنة الحائض:

ومن إهانتهم لها: ترك مساكنتهم المرأةَ إذا هى حاضت، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أهل الجاهلية لا تساكنهم حائض في بيت، ولا تؤاكلهم في إناء، فأنزل الله تعالى في ذلك، فحرم فَرْجها ما دامت حائضًا، وأحلَّ ما سوى ذلك: أن تصبغ لك رأسك، وأن تؤاكلك من طعامك، وأن تضاجعك في فراشك إذا كان عليها إزار محتجزةً به دونك»(٤).

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٩).
(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ٦٦٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٩).
(٤) أخرجه ابن جرير (٣/ ٧٢١).

هـ - تبرُّج المرأة في الجاهلية:

ومن إهانة الجاهلية للمرأة: ما نهى الله تعالى عنه من تبرج الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرُّج الجاهلية»(١).

وقال ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما كانت عادة العربيات التبذل، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعيةً إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكر فيهن، أَمر الله تعالى رسوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأمرهن بإدناء الجلابيب؛ ليقع سترهن، ويَبين الفرقُ بين الحرائر والإماء، فيعرف الحرائر بسترهن»(٢).

و- الاستعلان بالزنا والبغاء:

ومن تلك الإهانة التي عُرفت للمرأة في الجاهلية: الاستعلان بالزنا والبغاء عياذًا بالله، فكانت أصحاب الرايات الحمر يُعْرفنَ في الجاهلية، وكان في الجاهلية أنواع من الأنكحة أشبه بالبغاء(٣).

وكانت المرأة في الجاهلية تُكْرَه على الزنا والبغاء- عياذًا بالله تعالى- حتى أنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣].

حال المرأة في الأديان المُحرَّفة:

ولم تكن المرأة في بقية الأديان المُحرفة بأحسن حالًا منها في الجاهلية الوثنية،

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٤٠).
(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٣٩٩).
(٣) راجع ما أخرجه البخاري (٥١٢٧) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ومعلوم أنه لا يمكن بحال أن يهين دينٌ منزلٌ من السماء المرأةَ، وهي خلق الله المكرَّم، وإنما هي أديان محرفة، وأوضاع جاهلية.

فاليهودية المحرفة ترى المرأة كائنًا يجب أن يُحتقر، وأن يُمتهن فحَسْب، وعلى عهده ﷺ روى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحابُ النبى ﷺ النبى ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**»[(١)].

وعاشت أوروبا النصرانية قرونها الوسطى لا ترى المرأةَ إنسانةً أصلًا، وإنما تعدها رجسًا من عمل الشيطان.

قال المستشرق الفرنسى النصراني (جوستاف لوبون): «إن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية، وما اقتضته من احترام المرأة، فالإسلام- لا النصرانية- هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافًا للاعتقاد الشائع»، ثم ذكر صورًا من غلظة نصارى العصور الوسطى وعدوانيتهم نحو المرأة[(٢)].

ويقول أيضًا: «لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التى جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة»، ثم استطرد في بيان سوء حال المرأة عند أمم

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢).

(٢) حضارة العرب، لجوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر (ص٤١٦).

الإغريق فمَنْ بعدهم[١]... هذه شهادة كبار مستشرقيهم، والفضل ما شهدت به الأعداء!

تكريم الإسلام للمرأة:

إن تكريم الإسلام للمرأة كانت له مظاهر كثيرة، فمن ذلك:

أ- الوصية العامَّة بالنساء:

قال النبي ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»[٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»[٣].

ثم خص المرأة في كل حال تكون عليه بما يكرمها، ويحمل على حسن عشرتها ومودتها.

ب- الوصية بالأم:

فإن كانت أُمًّا، فما أعظم فضلها! وما أعلى منزلتها! وما أشد العناية بها! هي أحق الناس بحسن الصحبة، وكمال العشرة، ولزوم قدميها في سبيل الجنة، طاعتها فريضة، وعصيانها كبيرة، وقد قال نبينا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ**»[٤].

ج- الوصيَّة بالبنت:

وإن كانت بنتًا، فما أكثر الأجرَ في تربيتها، والإحسان إليها، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»[٥].

---

(١) حضارة العرب، لجوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر (ص٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦١٩)، وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال نبينا ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْن حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**»(١)، وضم أصابعه ﷺ.

فمن عني بتأديب بناته، وأحسن إليهن، كن له سترًا وحجابًا من النار يوم القيامة.

د- الوصية بالأخت:

وإن كانت المرأة أختًا، فقد وصى بها النبي ﷺ كذلك، فإن النبي ﷺ قال: «**لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ، أَوِ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَيَتَّقِي اللهَ فِيهِنَّ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢)، فنزل الأخوات منزلة البنات.

هـ. الوصية بالزوجة:

وأما إن كانت المرأة زوجةً، فقد جاءت الوصايا بها خاصةً ومتعددةً في كتاب الله، وفي سُنة رسول الله ﷺ، يقول تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ١٩]، ويقول تعالى أيضًا: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

بل إن تكريم الإسلام للزوجة قد بدأ من قبل تزويجها، فيجب أن تُستأذن المرأة في تزويجها؛ بكرًا كانت أو ثيبًا، فإن كرهت لم تُجبر إذا كانت كبيرةً أو ثيبًا، وليس لغير الأب أو الجد أن يزوج البكر البالغ(٣) بدون إذنها بالإجماع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١١٣٨٤)، وأبو داود (٥١٤٨)، والترمذي (١٩١٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) حذفت العرب تاء التأنيث من وصف الأنثى في مواطن كثيرة، فيقولون: امرأة بالغ، وعجوز، =

وفي الحديث: «**لَا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ البِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ**، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: **أَنْ تَسْكُتَ**»(١).

وأثبت الشرع الحكيم لها المهر دون غيرها، قال سبحانه: ﴿**وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً**﴾ [النساء: ٤].

وأوجب نفقتها وكسوتها وسُكناها على زوجها، قال سبحانه: ﴿**لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ**﴾ [الطلاق: ٧]، وقال سبحانه: ﴿**أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ**﴾ [الطلاق: ٦].

وفي حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حجة الوداع، قال ﷺ: «**وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**»(٢).

وإن كُن زوجات عند رجل واحد، فقد وجب العدل بينهن، فإن خشي عدم العدل، فليكتف بواحدة، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ**﴾ [النساء: ٣]، ثم إنه إن مال لإحداهما على الأخرى، فقد أدخل نفسه تحت الوعيد الذي أخبر به نبينا ﷺ، فقال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ لِإِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَجُرُّ أَحَدَ شِقَّيْهِ سَاقِطًا أَوْ مَائِلًا**»(٣).

=

وعاشق، وغير ذلك، وإن قال أحد: «امرأة بالغة»، لم يكن خطأً؛ لأنه الأصل. راجع: تهذيب اللغة، للأزهري (٨/ ١٣٥).

(١) أخرجه البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩٣٦)، وأبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١١٤١)، والنسائي في الكبرى (٨٨٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثم إن الشارع الحكيم لم يكتفِ بحسن عِشرة الزوجة في حياتها، بل أمر بالوفاء لها بعد وفاتها، وهكذا كان هَدْي نَبينا ﷺ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبى ﷺ ما غِرْتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبى ﷺ يُكْثِر ذِكْرَها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فيقول: **إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِى مِنْهَا وَلَدٌ**»[1].

قال الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا دليل على حسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب»[2].

فنسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يُوفقنا للإحسان إلى نسائنا وزوجاتنا، مقتدين بقول نَبينا ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِى**»[3].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وابن ماجه (١٩٧٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

البصيرة الخامسة والعشرون
في الاحتساب على الغلو

إن الغلو هو داء الأمم، وهو مبيد الحضارات والنعم، قال فيه النبي ﷺ محذرًا وزاجرًا: «**وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّين، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالغُلُوِّ فِي الدِّين**»[1].

إن الغلو داء تستدعى أنواعه بعضها بعضًا، ويستتبع فيه كل انحراف أخاه حتى يجتمع في أهل الغلو الشر كله، فالغلو في العبادة يفضى إلى غلو في العقيدة، وما يكون فيهما يُفضى إلى مثلهما في المعاملة والسياسة، وهلم جرًّا، ودين الله وسط بين الغالى فيه، والجافي عنه.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أمَر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالى فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالى فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٤٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤٦٤، ٤٦٥).

وقد ورد النهى صريحًا عن الغلو في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وحذر نبينا ﷺ من الغلو التحذيرَ النبوي الشديد، فقال ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، قالها ثلاثًا[(١)]، وإنما ردد القول ثلاثًا؛ تهويلًا منه، وتنبيهًا على ما في الغلو من الغائلة، وتحريضًا على التيقظ والتبصر دونه.

والمتنطعون هم الغالون، وهم المتعمقون المبالغون المجاوزون حدود الاعتدال في أقوالهم وأفعالهم.

قال الخطَّابى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المتنطع المتعمق في الشىء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام، الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم»[(٢)].

وكم تحت كلمة «التنطع» من مصيبة تعود على أهل التشدق باللسان، والتكلف بالقول، الذين يرومون بسَبْك الكلام سَبْى قلوب الرجال، نسأل الله العافية[(٣)].

وقد تعددت مناسبات النهى عن الغلو، وتعددت أسباب التحذير منه في كل مجال من مجالات التدين بالقول والفعل والفكر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِى الدِّين**» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقاد والأعمال»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) معالم السنن، للخطابي (٤/ ٣٠٠).

(٣) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوربشتي (٣/ ١٠٤٦).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١/ ٣٢٨).

مجالات الاحتساب على الغلوِّ:

إن مجالات الاحتساب على الغلو كثيرة ومتعددة، فهو موجود في المجال الفكري والعقدي والعملي، وفي تاريخنا صور مشرقة للاحتساب على كل منكر في الجانب العقدي أو الفكري، وذلك بدءًا من السيرة مرورًا بالقرون الثلاثة المفضلة.

احتساب نبيِّنا ﷺ على الغلو وأهله:

في سيرة النبي ﷺ وسُنته ودعوته وجد الاحتساب العقدي والفكري على كل غلو، بدءًا من الشرك، وانتهاءً بسائر مخالفات الأعمال من المعاصي، أو البدع العملية.

أول ذلك: احتساب نبينا ﷺ على عبدة الأصنام، فما كان ليتركها محيطةً بالكعبة تُعبد من دون الله، وهي قاعدة الشرك وبنيان الكفر، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاث مائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]»[(١)]، ولم يقر ﷺ وجود ذي الخَلَصة الذي كان صنمًا يسمى بالكعبة اليمانية أو الشامية، فأرسل له خمسين فارسًا، فكسروه[(٢)].

كما احتسب النبي ﷺ على جد الخوارج الأول- ذي الخويصرة التميمي- الذي رد قسمة النبي ﷺ للغنائم، وزاد على ذلك بأن أمر النبي ﷺ بالعدل، فأنكر عليه النبي ﷺ، وقال له: «**وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٦) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَكُنْ أَعْدِلُ»(١)، ثم قال نبينا ﷺ: «**إن مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا- أو: فِي عَقِبِ هَذَا- قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(٢).

وفي هذا الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ، فإنه أخبر بهذا، فوقع كله كفلق الصبح، فيتضمن ذلك الإخبار ببقاء الأمة بعده ﷺ، وأنهم يفترقون فرقتين، وأنه يخرج عليهم طائفة مارقة يشددون في الدين في غير موضع التشديد، ويبالغون في الصلاة والقراءة، ولا يقومون بحقوق الإسلام، بل يمرقون منه، وأنهم يقاتلون أهل الحق، وأن أهل الحق يقتلونهم... فهذه أنواع من المعجزات جرت كلها، ولله الحمد(٣).

احتساب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الغلو:

قام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لله تعالى بواجب الاحتساب، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خير قيام، فدخل في دائرة إنكارهم: الغلو والتفريط، سواء بسواء.

فقد رصد التاريخ احتساب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مانعي الزكاة المتأولين، وقتاله لهم(٤)، كما رصد احتساب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على صَبِيغ بْن عِسْل الذي كان يثير الشبهات، ويتكلم في متشابه القرآن، فجلده بعراجين النخل حتى شجه، وسال الدم على وجهه(٥)، كما احتسب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على السبئية الغلاة الذين

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).
(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي (٦/ ١٦٦، ١٦٧).
(٤) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) الشريعة، للآجري (٢٠٦٤).

غلوا فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى ادعوا فيه الألوهية، فلم يرضَ إلا أن حَفر لهم حفرًا، فحَرقهم بالنار[(١)]، وهكذا مضت سنة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

احتساب الخلفاء والعلماء على الغلو:

كما كان الاحتساب على الغلو من سُنة الصحابة الكرام، فقد تبعهم على ذلك صالحو هذه الأمة من العلماء والخلفاء، فهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يحتسب على من يسب عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بعض خطباء بنى أُمية[(٢)]، وقصصُ احتسابه رَحِمَهُ اللَّهُ على أهل البدع من الخوارج والقدرية وغيرهم كثيرةٌ معروفةٌ.

وكذا احتسب الخلفاء والولاة على أهل الغلو والبدع، فاحتسب ولاة بنى أمية على الجعد بن درهم، وعلى الجهم بن صفوان، بينما احتسب العلماء على أهل الغلو والبدع وإن كانوا ولاةً وحكامًا، فاحتسب الإمام أحمد وغيره من أهل العلم على المأمون والمعتصم وغيرهما في فتنة القول بخَلق القرآن، والأخبار في ذلك كثيرة.

الاحتساب على أنواع الغلو ومجالاته:

وقد عَرفَت المجتمعات من قديم وإلى يوم الناس هذا للغلو أنواعًا شتى، وجوانب متعددة، فتصدى له العلماء في كل زمان ومكان، فمن ذلك:

الاحتساب على الغلو فى التعبُّد والسُّلوك:

لقد وجد غلو في جانب مسلكى وتربوي، فاحتسب النبى ﷺ قديمًا على من ترك النكاح، أو حرم على نفسه الطعام أو المنام[(٣)]، كما احتسب على من ترك

(١) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري (١٠٦٥)، الشريعة، للآجري (١٤٥٩).
(٢) الأمالي الخميسية، للشجري (٧٤٥)، راجع: الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٤/ ٩٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكلام، وأعلن الصيام، واستعلن بالقيام في الشمس، وهو يظن ذلك عبادةً، فأمره النبي ﷺ بالصيام والكلام والقعود والاستظلال(١).

وكذا نهى النبي ﷺ عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أن يختصي ويتبتل(٢)، وأقر على التعبد من غير تبتل، ولا إثقال، ولا إملال.

ونهى ﷺ عن تعبد يضر بحقوق الأهل والأولاد، فقال ﷺ: «**فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»(٣).

وأخبر عن نفسه الشريفة ﷺ، فقال: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»(٤).

ولذلك، لم يشرع في الإسلام قصد تعذيب النفس بالشاق من العبادات، فلا تقصد المشقة في العبادة لذاتها.

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قيل: ما ضابط الفعل الشاق الذي يؤجر عليه أكثر مما يؤجر على الخفيف؟

قلت: إذا اتحد الفعلان في الشرف والشرائط والسنن والأركان، وكان أحدهما شاقًّا، فقد استويا في أجرهما؛ لتساويهما في جميع الوظائف، وانفرد أحدهما بتحمل المشقة لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأثيب على تحمل المشقة لا على عين المشاق؛ إذ لا يصح التقرب بالمشاق؛ لأن القُرَب كلها تعظيم للرب

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس عين المشاق تعظيمًا، ولا توقيرًا»[(١)].

هكذا كان الصحابة حين أنكروا على الخوارج تعبدات تعبدوها غلوًّا وإسرافًا وخروجًا عن حد الاعتدال، فقد رأى عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصًى، فيقول: كبروا مائةً، فيكبرون مائةً، فيقول: هللوا مائةً، فيهللون مائةً، ويقول: سبحوا مائةً، فيسبحون مائةً، فقال لهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويْحَكم يا أُمة محمد، ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسى بيده، إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد ﷺ، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله، ما أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم.

فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلَق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج»[(٢)].

وهكذا استمر سلفنا- رضوان الله تعالى عليهم- عبر تاريخ طويل في الإنكار على أهل الغلو في الجانب التربوي والسلوكى.

الاحتساب على الغلو فى الجهاد والقتال:

ويقع مثل هذا الإنكار إذا وقع غلو في الجانب الجهادي، أو في الجانب العسكري،

(١) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام (١/ ٣٦).

(٢) أخرجه الدارمي (٢١٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٨٩٠).

فقد أنكر النبي ﷺ أخطاء العجلة في الجهاد، فأنكر على أسامة رضي الله عنه أَنْ قتل رجلًا بعد أن قال: لا إله إلا الله(١)، ووَدَى النبي ﷺ بعض القتلى بسبب تلك الأخطاء(٢).

وشدد على التزام أحكام الجهاد الصارمة في أشد الأوقات وأصعبها على النفس: المقاتلة، حتى حدا هذا بعض الغربيين أن يقولوا على سنن الإنصاف: «إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعنى السلام لا العنف».

فإذا انتقلنا إلى العصر الحاضر، وجدنا مآسى المسلمين وأحوالهم المتردية من أكثر الأسباب استفزازًا للشباب الغيور على دينه، فمنذ محاكم التفتيش الإسبانية إلى حروب اليوم في سوريا والعراق وغيرهما، مرورًا بالاحتلال وحقبته المظلمة- انتهكت حرمات أهل الإسلام، وأُعملت آلة القتل في الأطفال والنساء والشيوخ بلا حريجة من دين أو خُلق أو ميثاق.

وفي ظل استلاب مهام العلماء والأئمة، انطلق الجهاد بعيدًا عن ضبط وإحكام شرعي، فوقعت ألوان من مجازفات علمية باتخاذ الحوادث الجزئية أصولًا كلية، والغفلة عن جمع النصوص وفهمها معًا.

وكان لهذا من الآثار الوبيلة في قتل من لم يقاتل، واستباحة مَن دمه معصوم، في أنواع منوعة من الخلل في إجراء الأحكام، والتأول في الأموال والأعراض.

الاحتساب فى المجال السياسى:

وهكذا تمتد مجالات الحسبة والإنكار للنبي ﷺ حتى على بعض عماله،

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٢).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٥٢١).

فاحتسب النبي ﷺ في المجال السياسي على بعض عماله حتى قال لأحدهم: «**أَفَلَا قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَنَظَرْتَ أَيُهْدَى لَكَ أَمْ لَا؟**»(١)، ولما صنع بعض قُواده أمرًا لا يقره عليه، قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**»، مرتين(٢).

وعلم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الأمة كيف يكون الاحتساب على الأئمة، فهذا أول خلفاء النبي ﷺ الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «ألا فَرَاعُوني، فإن استقمتُ فأعينوني، وإن زغتُ فقوِّموني»(٣).

على هذا مضى عهد الراشدين، وتواتر عن السلف الصالحين احتسابهم على الأمراء، واحتمالهم الأذى في سبيل ذلك كثيرًا، فوجدت الحسبة منهم على الأمراء بالقول والترك، ووجدت فرديًا وجماعيًّا عبر مؤسسة أهل الحَل والعقد من العلماء ووجوه الناس التي قامت بواجبها في الإنكار والتقويم في بعض العهود.

وهكذا يستمر عطاء الاحتساب لضبط ساحة الانحراف، ويستمر تدقيق مجالاته، ومراجعة أعماله، والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هم الذين وضعوا هذه الأسس، وسار عليها الأئمة والأمة من بعد.

نسأل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يعلم أبناءنا، وأن يهدي شبابنا، وأن يأخذ بنواصينا ونواصيهم لخير ما يحب ويرضى، إن ربنا جواد كريم، بر رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٦)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.
(٣) أخرجه معمر في جامعه (٢٠٧٠١).

البصيرة السادسة والعشرون
في محاسبة النفس

للنفس البشرية نزعتان؛ نزعة إلى خير، وأخرى إلى شر، والعاقل من أخذ بناصيتها إلى سبل الخيرات، وباعد بينها وبين طريق الشرور والمخالفات.

ولقد قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠]، لقد جعل الله تعالى لهذه النفس طريقين: طريق تقوى به تفوز وتفلح، وطريق فيه الفجور، وبه الخسارة والخيبة - عياذًا بالله.

خطورة الغفلة عن محاسبة النفس:

إن الناظر في حال الناس اليوم يرى أن نفوسًا كثيرةً رخصت عند أهلها، حتى صاروا من الذين قال الله فيهم: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

ويرى هذه الخسارة بسبب غفلتهم عن أنفسهم، وتَرْكهم مراقبتها ومحاسبتها، ثم يتحسرون على ذلك في يوم لا ينفع فيه التحسر، قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

وبتَرْكِ محاسبة النفس يتسلط الشيطان الذي يدعو إلى المعصية، ويُنفر من الطاعة، ويُزين الباطل، ويُثبط عن صالح العمل.

وبِترْك محاسبة النفس تتمكن الغفلة من الخلق، فتصبح القلوب لا تفقه، والأعين لا تبصر، والآذان لا تسمع، فأهل الغفلة كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقد وعظ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨].

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨]، أي: اعملوا كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وَزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية»(١).

انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من صالح العمل ليوم معادكم، وعرضكم على ربكم، واعلموا أن الله تعالى عالِم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، وهكذا ينبغي أن ينظر الإنسان لنفسه.

ويترتب كذلك على تَرْك محاسبة النفس: هلاك القلب، فهلاك القلب أثر من آثار إهمال النفس، ومن موافقتها، واتباع هواها.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأضرُّ ما عليه الإهمال، وتَرْك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يئول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويمُشي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه، والنظر في العاقبة.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٦٠٠).

وإذا فعل ذلك، سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليها فِطَامها، ولو حضره رشده، لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد»[١].

إن الإنسان الذي يمشى في طريق حياته مغمضًا عينيه عن الآخرة، يُمشى حاله كيفما اتفق، ويتكل على عفو الله تعالى، فيهمل محاسبة نفسه، ويهمل النظر في عاقبته، فإذا فعل المعصية، سها عن عاقبتها، وغفل عن أليم عذابها، ولم يبالِ بمواقعته إياها، بل ربما أنس بها، وفرح بها، فمن كان على هذه الحال، فإنه يعسر عليه أن يتوب، ويعسر عليه الفطام، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية عن هذه الذنوب أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد.

حرص السلف على محاسبة أنفسهم:

كان السلف- رضوان الله تعالى عليهم- يتواصون بأن يحاسب كل أحد منهم نفسه.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»[٢].

وذكر عنه- أيضًا- أنه كان يمسك بلسانه، ويقول: «هذا الذي أوردنى الموارد»[٣].

وكان يبكى كثيرًا، ويقول: «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[٤].

ولما احتضر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال لعائشة: «يا بُنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٨٢، ٨٣).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٩).
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢٨٢٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (٥٧٩).
(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٨).

العباءة، وهذه الحلاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب[١]...»[٢].

فاعجب لهذه المحاسبة الشديدة التي يحاسب بها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه، وهذا الاحتياط البالغ الذي يحتاطه لدينه رضى الله تعالى عنه وأرضاه!

وكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بعض عُماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة- يعنى: حساب القيامة- فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغلته أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والخسارة»[٣].

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن- والله- ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته؛ يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدمًا لا يعاتب نفسه»[٤].

وقد وصف الله سبحانه أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير- بل بين التفريط- والأمن!»[٥].

فنحن نُفرط في العمل، ونأمن الحساب غدًا، وهذا نوع من أنواع الاغترار- عياذًا بالله-، يحكيه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن عصره وأهل زمانه، فكيف لو حضر هذا

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٧).

(٢) الجواب الكافي، لابن القيم (ص٤٠).

(٣) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا (١٦)، وشعب الإيمان، للبيهقي (١٠١١٧).

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (١٠/ ٨٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣٤٣) إلى عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا.

(٥) الجواب الكافي، لابن القيم (ص٤٠).

العصر، ورأى أهل هذا الزمان!

أنواع محاسبة النفس:

محاسبة النفس على ضربين:

١- ضرب يكون قبل العمل.

٢- وضرب يكون بعده.

أما النوع الأول: فالذي يكون قبل العمل: هو نظر العبد في نيته في العمل، والباعث عليه، وفي صحة هذا العمل وصوابه، وهل هو على قدم المتابعة للنبى ﷺ أو لا، فإن كان العمل لله، وإن كان على قدم المتابعة لرسول الله ﷺ، فليفعله على بركة الله، وإلا يكن ذلك، فليراجع نيته، وليُصوب عمله على وفق سُنة النبي ﷺ.

أمَّا النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل، فتحاسب نفسك على أمور:

أ- طاعات قصرت فيها، كما لو قصرت النفس في تحصيل الإخلاص أو المتابعة، أو وقع منها تفريط بترك بعض العبادات والأوراد؛ كترك الذكر اليومي، أو ترك ورد القرآن الكريم، أو ترك ورد الصيام أو القيام، أو نحو ذلك، أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو التهاون بصلاة الجماعة، أو الإخلال بالسنن الرواتب... إلى غير ذلك.

فينبغي للمسلم أن يحاسب نفسه في هذا النوع، وذلك بالاستغفار والتوبة أولًا، ثم بإكمال ما وقع من نقص، وإصلاح ما وقع من خطأ، وتدارك ما فات من عمل، فيقضي السنة الراتبة التي فاتته، ويقضي الذكر الذي كان يذكر الله تعالى به في المساء إذا أراد أن ينام، حتى لا يكون قد أخلَّ بشيء من أعمال يومه وليلته.

ثم ليسارع إلى الخيرات، وليبادر إلى ترك النواهي والمنكرات، وليعجل التوبة من سائر المخالفات، ويكثر من الاستغفار، ومراقبة الله ﷻ، والعمل على

استئناف عمل جديد خال من تلك الآفات بقَدر الإمكان.

ب- ثم على الإنسان أن يحاسب نفسه بعد العمل على كل عمل كان تَرْكهُ خيرًا من فعلِهِ؛ لأنه أطاع فيه الهوى، وهذا طريق نافذ إلى المعاصي، ولأنه من المتشابه، والنبي ﷺ يقول: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ؛ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِن لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١).

ويقول ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٢).

وهنا نوع ثالث من أنواع محاسبة النفس بعد العمل، وهو أن يحاسب الإنسان نفسه على نيته في فعل المباحات والمعتادات؛ كالتصرف في الكسب، وطلب الرزق الحلال، ونحو ذلك، فيحاسب نفسه: هل نوى في هذه الأعمال نيةً صالحةً؟ هل أراد بها الله والدار الآخرة، فيكون من الرابحين، أو أراد به الناس، ووجوه هذه الحياة الدنيا، فيكون بذلك مُفوتًا لربحه، مُفرطًا في حق آخرته.

فوائد محاسبة النفس:

ولمحاسبة النفس فوائد كثيرة، منها:

أ- **معرفة عيب النفس**: فإذا حاسب الإنسان نفسه، اطلع على عيبها، وإذا اطلع على عيب نفسه، كان ذلك أول خطوة في علاج نفسه، وإزالة عيبه بإذن الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨) من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ب- **معرفة حق الرب**: إن أصل محاسبة النفس هو أن يحاسب العبد نفسه على تفريطها في حق ربها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فمَن حاسب نفسه، فقد عرف حق ربه.

ج- **تجديد التوبة**: إذا حاسب العبد نفسه على تقصيرها، فإنه يراجعها في أمر التوبة والأوبة، فيُجدد توبةً وندمًا، ويجدد العزم على ألا تقع منه المخالفة أبدًا.

ومَنْ صاحبَ هذه الحال في سيره إلى الله، كان من التوابين الذين يحبهم رب العالمين الذي قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

د- **انكسار النفس وتَطهرها من الآفات**: فالنفس إذا حاسبها صاحبها، انكسرت أمام الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وتذللت، وعرفت فَضْل الله تعالى وكرمه، وكان هذا سببًا للزهد في الدنيا، ولمقت النفس، وللتخلص من الكبر والعجب... إلى آخر هذه الفوائد العظيمة، والمنافع الجليلة.

أسباب الإعانة على محاسبة النفس:

وهناك أسباب تعين المسلم على محاسبة نفسه، وتُسهل عليه ذلك، فمنها:

أ- أن يعرف الإنسان أنه كلما اجتهد في محاسبة نفسه اليوم، استراح في الحساب غدًا، وأن يعرف إن ربح محاسبة النفس هو سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الله الكريم، نسأل الله من واسع فضله.

ب- صحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم، ويُطْلعون الإنسان على عيب نفسه، فهذا مما ينفعه في الدنيا والآخرة.

ج- النظر في أخبار أهل المحاسبة والمراقبة من سلفنا الصالح الذين هم قدوة الناس في هذا الباب.

د- زيارة القبور، فإن ذلك يُذكر الآخرة، ويُزهد في شأن الدنيا.

هـ- حضور مجالس العلم والذكر، فإنها تُرغب في محاسبة النفس، وتجلو الغفلة عن القلب، والابتعاد عن أماكن اللهو والغفلة؛ فإنها تورث التعلق بالدنيا، ونسيان الآخرة.

و- وأخيرًا، فالسبب الأهم الذي يُعِينُ العبد على محاسبة نفسه: أن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأن يجعله من أهل المحاسبة والمراقبة، وأن يجعله من أهل الخشية بالغيب والشهادة.

وقفة أخيرة:

على كل واحد منا أن يلزم نفسه بوقفة كل ليلة، فلا تنام عيناه كل ليلة حتى يجيب عن هذه الأسئلة:

هل أديتُ الفرائض؟

هل انتهيتُ عن المناهى؟

هل راقبتُ الله ﷻ في كل أمري؟

هل التزمَتْ حركاتُ قلبى وجوارحى بمرضاة ربى؟

فإن كانت الإجابة بـ «نعم»، فليحمد الله، ولا ينظر إلى نفسه بعين الكمال، فإن الموفِّق هو الله جل في علاه، وإن كانت الأخرى، بادر بالتوبة، وسارع إلى الأَوْبَة قبل أن تبعد به الشقة، وتغشاه الغفلة.

علَّمَنا الله ما ينفعنا، ونفعنا بما علمنا، وزادنا علمًا وعملًا، وأعاذنا من فتنة القول وفتنة العمل، وآتى نفوسنا تقواها، وزكاها إنه خير من زكاها، إنه وليها ومولاها، والحمد لله رب العالمين.

البصيرة السابعة والعشرون

في المخرج من الفتن

كل مسلم في هذا الزمان الذي يعج بالفتن يتساءل: كيف له أن يدافع هذه الفتن، وأن يحذرها؟ كيف له أن يثبت على الحق المبين حتى يلقى الله جل في علاه؟

معنى الفتنة، والتحذير منها:

والفتنة في اللُّغة: «الامتحان والاختبار، تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته»[1]، وقد تستعمل الفتنة لمعان أخرى، لكن الذي يعنينا هنا: هو معنى الامتحان والاختبار والابتلاء، وإلا فإن الفتنة قد تكون هي الكفر، وهي الشرك، وهي العذاب، وهي الإزالة، وهي الجنون، عياذًا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والفتنة مذكورة في كتاب الله، وقد حذر الله تعالى منها كثيرًا، فقال جلَّ مِن قائل: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقد كان نبينا ﷺ يستعيذ بالله من الفتن دُبُر كل صلاة، ولهذا أُثِر عنه ﷺ أنه كان إذا فرغ من التحيات قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ**»[2].

---

(١) الصحاح، للجوهري (٦/ ٢١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقَدْ حثَّ نبينا ﷺ على المبادرة إلى التزود بالأعمال الصالحة قبل حلول الفتن، بل قبل حضور فتنة الممات، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَض مِنَ الدُّنْيَا**»(١).

«فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل ألا يَقْدِرَ عليها، ويُحال بينه وبينها، إما بمرض أو موت، أو بأن يُدركه بعضُ هذه الآيات التي لا يُقبل معها عمل»(٢).

يقول ابن هبيرة عن هذا الحديث: «ففي هذا الحديث من الفقه: الحث على مبادرة الفتن بالأعمال، فإن من الفتن ما يعرض للقلوب، فتصبح مؤمنة، وتمسى كافرة في تلك الفتنة؛ لأن القلوب كثيرة التقلب من ربقة الحق، شديدة التطلع إلى منافذ الضلال، فإذا قُذف في رُوعها شيء من المُضلات، وجد عندها داءً قاتلًا، وشرا مستعرًا؛ كالنار التي تقع في الخراق.

فينبغي للإنسان أن يكون أشد خوفًا وحذرًا على دينه وإيمانه، متعاهدًا له بالذكر ومُدَارسة القرآن، وامتثال أمر القرآن بالنظر والتدبر والفكر المُؤدي له إلى الحق صباح مساء، بل في كل وقت ونَفَس وساعة»(٣).

وأشد الناس ابتلاءً واختبارًا: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فعن

(١) أخرجه مسلم (١١٨).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٣/ ١١٣١).
(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة (٨/ ١٦٣).

سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: **الأَنبيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاس، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَب دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ البَلَاءُ بالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْض لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١).

أقسام الفتن:

تقسم الفتن عدة تقسيمات بالنظر إلى عدة اعتبارات، فمن ذلك ما يأتي:

أولًا: الفتن دينية ودنيوية:

تنقسم الفتن بالجملة إلى قسمين: فتن دينية، وأخرى دنيوية.

فأمَّا الفتن الدينيَّة، فهي اختبار وابتلاء للإنسان في دينه، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

فهذه الفتن الدينية هي أعظم الفتن وأخطرها، وأخطر الفتن على الإطلاق ما قدح في أصل دين الله، ألا وهو التوحيد، وما كان سببًا في حصول الشرك عياذًا بالله، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

فافتتان المسلم في دينه أشد عند الله من قتله وهلاكه؛ لأنه إن ترك دينه، خسر الدنيا والآخرة، وإن مات على إيمانه، فاز بجنة عرضها السماوات والأرض.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١)، والترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

أما الفتن الدنيوية، فهي ابتلاء ينزل بالإنسان في نفسه، أو أهله وأحبابه، أو أمواله، ونحو ذلك، فمَنْ قُبِضَ صفيُّه من أهل الدنيا، فهو في اختبار وامتحان، ومن ذهب شيء من ماله، فهو في اختبار وامتحان، ومن نزل به مرض في بدنه أو جسده، فهو في اختبار وامتحان.

فإذا أحسن المؤمن استقبال هذا الاختبار الإيماني، والامتحان الرباني، كان له فوزًا ونجاةً وأجرًا، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال نبينا ﷺ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**(١).

ثانيًا: الفتن بالشَّهوات أو بالشُّبهات:

تقع الفتن بالشهوات والشبهات، ففتن الشهوات هي ابتلاء المرء بحُبه للشهوات والملذات؛ سواء كانت شهوة فرج، أو شهوة بطن، أو شهوة مال، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

أما فتنة الشبهات، فهي أشد وأنكى، وهي اختلاط الحق في نظر الإنسان، أو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

وقوع الإنسان في شيء من الضلالات الدينية، كأن يتبنى بدعة عقدية أو عملية، فيظنها من دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي يتقرب به إلى الله.

وعلاج فتنة الشهوات بالصبر، والقوة في الدين، وعلاج فتنة الشبهات بالعلم والبصيرة في الدين؛ لأجل ذلك وصف الله أنبياءه ومرسليه بأنهم ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة ص: ٤٥].

ولأجل ذلك رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال لعمران بن حصين: «**وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ** عَجَلَّ **يُحِبُّ البَصَرَ النَّافِذَ عِنْدَ مَجِيءِ الشُّبُهَاتِ، وَالعَقْلَ الكَامِلَ عِنْدَ نُزُولِ الشَّهَوَاتِ**»[١].

ثالثًا: الفتن من جهة الخلق، أو من جهة الخالق:

وقد تكون الفتنة من جهة الخَلْق، وقد تكون من جهة الخالق.

فالتي من جهة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ما يصيب به اللهُ عبدَه من مصائب قدرية، كما قال الله عَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا أصاب الله تعالى المؤمن بشيء قدري من وفاة حبيب أو قريب أو صديق، ونحو ذلك ما يقع في بدنه أو في ولده، فاحتسَب ذلك عند الله تعالى، وثبَت وصبَر- فإن الله تعالى يأجره، ويجعل من وراء ذلك تكفيرًا لذنبه.

وأما الكافر والمنافق، فإنه يتضجر ويسخط قضاء الله تعالى وقدره إذا أصابه شيء من ذلك عياذًا بالله، فيكون من وراء ذلك زيادة في عذابه وبلائه.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[٢].

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (١٠٨٠)، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٥٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا فتنة الخَلْق، فهي المصائب التي تقع من جهة تسلُّط بعض الخَلْق على بعض بالإيذاء والاعتداء عن طريق القتل، أو السجن، أو السحر، أو الغصب، أو الحريق، أو نحو ذلك.

ومن ذلك ما يقع من الخصومات بين الإخوة والأحباب والجيران، ونحو ذلك، فقد تكون الخصومة بين الأخ وأخيه، وبين الطائفة والطائفة، وبين الدولة والدولة، فكل ذلك من فتن الخلق.

والواجب في فتن الخلق هو الصبر على قضاء الله تعالى أولًا، ثم الأخذ بأسباب دفع العدوان، وحفظ الحقوق، فيلاحظ العبدُ أولًا أنه ما تسلط عليه الظالمون إلا بمعصية منه وذنب، كما خاطب ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد غزوة أُحد، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثم لا تمنعه هذه الملاحظة عن القيام بالحق، ودفع الظلم والبغي، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في صفات أهل الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]، ثم يقول سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠].

أما إذا كان هذا البغي فيه تعد على دين الله، أو انتهاك لحرمات الله، فقد وجب الانتصار وتأكد.

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في صفة نبينا ﷺ وهديه: «والله، ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تُنْتهك حرماتُ الله، فينتقم لله»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦).

أنواع فتنة الخلق:

لفتنة الخلق أنواع متعددة، وصور متكاثرة، فمن هذه الفتن:

أ- فتنة العدوِّ من الكفَّار: وهذه الفتنة تؤدي إلى ما تؤدي إليه من ابتلاء المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ب- الفتنة بالأهل والولد: وهذه الفتنة هي التي تحدث الله تعالى عنها، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

ونزلت هذه الآية في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ، منعهم أزواجهم وأولادهم من المبادرة بالهجرة إلى رسول الله، ففاتهم مقام السابقين بالهجرة، ثم لما هاجروا، رأوا أصحابهم قد سبقوهم في العلم والفقه في الدين[(١)].

فهكذا تكون الفتنة بالأهل والأولاد، فإنها مع خفاء ضررها قد تذهب بدين الإنسان، أو ببعض دينه عياذًا بالله، فتحمله على الشح والبخل، وتُقْعده عن الصدقة والجهاد، وتدفعه إلى التكالب على الدنيا، وغير ذلك.

ج- الفتنة بالزوجة: قد تكون الفتنة بالزوجة، فقد ابتُلِيَ نبي الله نوح، ونبي الله لوط عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ بزوجتين كافرتين، ضربهما الله تعالى مثلًا للكفار، فقال جل من قائل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣١٧).

﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠].

د- **فتنة المال**: والمال قد يكون ذهبًا وفضةً، وقد يكون أنعامًا، أو حرثًا، أو عقارًا، ونحو ذلك، فكل ذلك تقع فيه الفتنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥].

وسائل الفتن وأسبابها:

أما وسائل الفتن فكثيرة، منها اللسان، ومنها اليد، ومنها هذه التقنيات الحديثة المعاصرة التى دخلت البيوت اليوم، بل اخترقت الأسماع والأبصار، فصارت الفتنة في كل بيت، بل صارت في يد كل إنسان بضغطة زر على جهاز في يده، فينتقل إلى عوالم فيها ما فيها من فتن الشهوات، وفتن الشبهات، عياذًا بالله.

وأما أسباب الفتن: فالجهل والنفاق، واتباع المتشابه، واتباع الشهوات، وحب الرياسة، والغلو في الدين، والحسد والطمع، وتعرض الإنسان من البلاء لما لا يطيق، إلى غير ذلك من أمراض القلوب، وأسباب البلاء، نسأل الله السلامة.

الوقاية من الفتن:

إن للفتن آثارًا سلبية وخيمة، بل لا يعلم عواقبها إلا الله، وإن الفتن لتشتبه على الناس حتى يقعوا فيها، ويصطلوا بنارها، فلا يعرف حقيقتها في أول ظهورها إلا العالِم البصير، كما روي عن الحسن أنه قال: «إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالِم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل»[1].

والناس يقعون في هذه الفتن بأشكال شتى، ويسقطون فيها لأسباب شتى،

---

(١) الطبقات، لابن سعد (٧/ ١٦٥).

والوقاية من الفتن هي أهم ما يجب على المسلم أن يتعلمه في هذا الموضوع، فما يقي الفتن أمور كثيرة، على رأسها:

أ- **العلم النافع**: أول أسباب دفع الفتن والوقاية منها: أن يتحلى الإنسان بالعلم الذي يدفع به عن نفسه عارض الجهل، والذي يعصم الإنسان أن يقع فيما لا يُرْضى الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما غير العالِم، فقد كلفه الله تعالى أن يسأل أهل العلم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فالعلم هو الذي يقي الإنسان مُضلات الفتن، ويدفع عنه المحن بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكُنْ- أيها المؤمن- عالمًا في نفسك، أو سَلْ عالمًا فيما اشتبه عليك أمرُهُ من أمور دينك ودنياك.

ب- **الصبر**: فإن الصبر من أعظم ما يتحلى به إنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ثم تأتي بعد هذين السببين العظيمين أسباب أخرى كثيرة من أسباب الوقاية من الفتن؛ كالحكمة والتأني، والعفو والصفح، والتمسك بكتاب الله، وسُنة نبيه ﷺ، واتباع العلماء والأمراء، والحرص على الجماعة، وحرب المفسدين، والتواصي بالحق والصبر.

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يعيذنا من مضلات الفتن، وإذا أراد بقوم فتنة أن يقبضنا إليه غير فاتنين ولا مفتونين، إنه جواد كريم، بر رؤوف رحيم.

والحمد لله رب العالمين.

البصيرة الثامنة والعشرون
في أثر الموعظة

إن للوعظ والموعظة مكانة شديدة الأثر في تليين القلوب، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد»[1].

أهمية الموعظة، والأمر بها:

وللموعظة أثر عظيم في نفس كل مَنْ وُعِظَ، ولذا تولى الله الموعظة بنفسه، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [الطلاق:٢].

وقال سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

وقد أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نبيه ﷺ بتذكير الناس وعظتهم، فقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩].

وقال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥].

وأمر الله المؤمنين أن يعظوا مَن نَشَز من نسائهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤].

---

(١) تفسير البغوي (٦/ ١٢٣).

ومما يدل على عظم شأن الموعظة: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سمى القرآن العظيم موعظةً، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقد تكررت مواعظ النبي ﷺ، وحكيت في السنة كثيرًا.

يقول العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظةً بليغةً، وَجِلت منها القلوب، وذَرَفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله، وعظتنا موعظةَ مودع، فاعهد إلينا بعهد...»(١).

«وبهذين الوصفين- ذرف العيون، ووجل القلوب- مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢/ ٧٦٢).

ولأجل العناية بالموعظة، والحرص على إيقاعها مواقع الانتفاع، كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة أصحابه، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا»(١).

وعلى هذا النحو جرى أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فعن أبي وائل قال: «كان عبد الله يُذكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها؛ مخافة السآمة علينا»(٢).

الانتفاع بالموعظة:

إن الاستجابة للوعظ وللموعظة علامة خير عظيم، وأمارة فوز قريب؛ فإن قبول الموعظة مَدعاة إلى النجاة من عذاب الله يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦].

وقال في آيات تحريم الربا: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقد جعل الله القرآن الكريم موعظةً للمؤمنين بالله واليوم الآخر، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٢٣٢]، وجعله كذلك ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فأهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالذكرى، ويستحقون الموعظة والنذارة، قال الله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

(١) أخرجه البخاري (٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

كَرِيمٍ ﴾ [يس:١٠، ١١]، فالذين يخشون ربهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، وتنفعهم الموعظة، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [سورة ق:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠].

والذين يخشون ربهم هم أولو الألباب، والذين يخشون ربهم هم العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

وبضدها تتميز الأشياء، فأهل الكفر والنفاق والشقاق لا تزيدهم الموعظة إلا خسارًا، لا تعرف الموعظة إلى قلوبهم سبيلًا، ولا تنتج في نفوسهم تأثيرًا، قال سبحانه يحكي مقالة عاد قوم هود لنبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: كل ذلك عندنا سواء، لا نسمع منك، ولا نلوي على ما تقوله»[1]، فوَعْظُ أمثال هؤلاء لا يفيد، ولا يغنى قليلًا، ولا كثيرًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦].

فإذا كان الإنسان ممن تتلى عليه آيات الكتاب، وأحاديث النبى ﷺ، فلا يُلقى لها بالًا، ولا يرفع إليها رأسًا، فهذا ممن عظم ظلمهم، وطال في الآخرة شقاؤهم، قال ربنا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٣).

وقد ضرب النبي ﷺ المثل لحال الناس مع الموعظة، فقال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْم كَمَثَل الغَيْثِ الكَثِير أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إنمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ فِي دِين اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(١).

فلا بد- إذًا- أن يكون للموعظة أثر في قلب المؤمن، وأن يكون متأدبًا بأدبها، منتفعًا بأثرها، قابلًا لها في كل حال.

آداب الموعظة النافعة:

يتوقف أثر الموعظة على التزام الواعظ بآداب الموعظة، وعلى أخذه بوسائل التأثير وأسبابه، فمن آداب الموعظة وأسباب التأثير فيها:

أ- الإخلاص في الموعظة:

أول هذه الوسائل: أن يكون الواعظ مخلصًا في قوله وعمله، وأن يكون وعظُهُ لله خالصًا، لا يريد به رياءً ولا سمعةً، فإنه عندئذ حري أن يبارك الله تعالى في قوله.

بل إن الدعوة والموعظة لا تكون مَرضيةً عند الله تعالى إلا بالإخلاص له، قال الله تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:١١٤].

ب- عمل الواعظ بما يقول:

وقد قيل: مَنْ لم ينفعك لحظُهُ، لم ينفعك وعظُهُ، ومن لم ينفعك لحظُهُ، لم

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ينفعك لفظُهُ، فالإنسان إذا لم يكن قدوةً في نفسه، صالحًا في قوله وعمله، فإنه- وإنْ نطق بالوعظ والتذكير- لا ينتفع به الكثير.

فالداعية الصالح أول العاملين بما يقول، وهو القدوة والأسوة للمدعوين، كما قال النبى الكريم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وإلا فإن الداعية إذا جمع على الناس شدة التذكير مع عدم عمله بما يُذكرهم به، أوشك أن يسقط من أعينهم، وتنفر عنه نفوسهم وقلوبهم، ثم هو قبل ذلك وبعده مُتَعرض لغضب الله ومقته؛ إذ يقول جل من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣].

ج- الرفق بالخلق، والشفقة عليهم:

ينبغى أن يكون الداعية كذلك متلطفًا بالناس، داعيًا إلى الله ﷻ بالحكمة، وأن يكون عارفًا بأحوال المخاطبين وما يناسبهم، وأن يكون محبًّا مشفقًا، يدفعه إلى الوعظ حب الخير لأهل الإيمان، ونصحه لأهل الإسلام.

وليتمثل حال رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ذلك الرسول الكريم الذي أوشكت نفسه أن تفيض حرصًا وحزنًا على المشركين، حتى قال ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

وليتذكر في دعوته قول النبى ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ**

فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»(١).

وأخيرًا، فعلى الواعظ أن ينفعل بما يقول، وأن يكون الكلام منبعثًا من قلبه؛ لأن الكلام إذا خرج من القلب، دخل إلى القلب، وأما إذا خرج من اللسان، فلن يجاوز الآذان.

وسائل الموعظة:

وسائل الموعظة كثيرة متجددة، فمنها الخطبة؛ سواء كانت خطبة جمعة، أم خطبة عيد، أم خطبة في مناسبة من المناسبات، وأنفع هذه الخطب: خطب الجمعة؛ لأن الناس يحضرونها وهم ملزمون بالإنصات لما يقوله الواعظ والخطيب.

ثم إن نقل هذه المواعظ وسماعها عبر الوسائط المسجلة صوتيًّا أو مرئيًّا- لمما يعين على انتشارها، ومما يساعد على انتقالها، فإذا كانت الموعظة سليمة قويمة، عمَّ نفعها، ونفع الله تعالى بها القاصي والداني.

ومن وسائل الوعظ أيضًا: الكتابة في صحف يومية سيارة، وفي مجلات أسبوعية وشهرية، كذا طَبْع الكتب والرسائل، والكتابة أبقى من الكلام، ولكلٍّ أثره وفائدته.

ومن الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله تعالى: إيراد القصص التى تُشوِّق الناس لسماع الخير، وكذلك تضمين هذه المواعظ من قصص النبيين، ومن أحداث سيرة النبى الأمين ﷺ، ومن رقائق الكلام الذي يأخذ بنواصى القلوب، وبمجامع الألباب إلى رب الأرباب سبحانه وجل في علاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤).

وختامًا نقول:

إن هذه الموعظة لا يستغنى عنها الكبير، وينتفع بها الصغير.

هذه الموعظة يحتاجها العالِم والداعية، كما يحتاجها العامى.

يُزجَر بها العاصى والفاجر، ويُذكَّر بها الغافل.

يُجدَّد بها الإيمان في النفوس، ويُثبِّت الله بها المهتدي، ويهدي بها الضال!

بها يُعرَّف الخلق بالخالق، ويُبصَّرُ الناس بشرائع الإسلام وحدوده، وتُكشَف مكائد الشيطان وأوليائه.

كل هذا من أثر هذه الموعظة الجليلة التى نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن تقع في القلوب موقعها، وأن تعمل في النفوس عملها.

اللهم انفعنا بمواعظ القرآن، وبكلمات النبي العدنان، وارزقنا التأثر بالذكر، وألهمنا الاستغفار، واجعلنا من الأبرار، وأنزلنا خير دار، يا عزيز يا غفار، يا رب العالمين.

البصيرة التاسعة والعشرون

في علو الهمة

علو الهمة هو ألا تقف النفس دون الله، وألا تتعوض عنه بشيء سواه، وألا ترضى بغيره بدلًا سبحانه جل في علاه، وألا تبيع حظها من الله وقربها والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من حظوظ الدنيا الخسيسة الفانية.

والهمة العالية على الهمم كالطائر الذي يعلو على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهمة إذا علت وارتفعت، لم تلحقها القواطع والآفات، كالطائر إذا علا وارتفع في الجو، فات الرماة، ولم يلحقه الحصى ولا البنادق ولا السهام، وإنما تدرك هذه الأشياءُ الطائرَ إذا لم يكن عاليًا، فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر، وإنما تلحق الآفات والدواعي والإرادات الهمة النازلة»[1].

إن المؤمن يسعى لأن تعلو همته في هذه الحياة، ولهذا قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تصغرن همتكم؛ فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم»[2]، فلا بد

---

(١) طريق الهجرتين، لابن القيم (ص٢٢٩).

(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص٣١٩).

للسالك- إذًا- من همة تُسيره وتُرقيه، وعلم يُبصره ويهديه.

مراتب الهمم، وتقسيمها:

والهمة يمكن تقسيمها من حيث الرفعة وضدها إلى عالية وساقطة، وأن تقسم من حيث الاستعداد الفطري إلى وهبية ومكتسبة.

أما مراتب الهمم، فقد بينها نبينا ﷺ فيما نقله أبو كبشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**، قال: **مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**، أو كلمةً نحوها.

وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، فإنه قال: **إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ**، قال: **فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ**، قال: **وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا**، قال: **فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ**، قال: **فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ**.

قال: **وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ**، قال: **وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ**، قال: **هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ**»(١).

وعلى نحو هذا التقسيم النبوي ينقسم الناس، وتتفاوت منازلهم في الهمة، فمنهم من يطلب المعالي بلسانه، وليس له همة في الوصول إليها بسعيه، ومثله الذي يخاطب بقول الشاعر(٢):

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٣١)، والترمذي (٢٣٢٥).

(٢) من شعر أحمد شوقي، من قصيدة: «أبا الزهراء قد جاوزت قدري».

وَمَــا نَيْــلُ المَطَالِــبِ بِــالتَّمَنِّي ولَكِــنْ تُؤْخَــذُ الــدُّنْيَا غِلابَــا

ومنهم مَنْ لا يطلب إلا سفاسف الأمور ودناياها، ويجتهد في تحصيلها- عياذًا بالله- وهذا إن اهتدى يكون سبَّاقًا للخيرات كما أخبر النبي ﷺ، فقال: «**فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»(١)، وفريق ساقط الهمة يهوى سفاسف الأمور، ويقعد به العجز عنها، فهو من سقط المتاع، وهذا كما وصف الشاعر بقوله(٢):

دَعِ المَكَــارِمَ لا تَرْحَــلْ لِبُغْيَتِهَــا وَاقْعُدْ فَإِنَّـكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وأعلى الهمم: همة مَن تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله، فهذا الذي يهنأ بهمته في الدنيا والآخرة، فتأبى همته السفاسف، ولا تقف عند متاع الدنيا الزائل، أولئك الكبار من أمثال ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: **سَلْ**، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: **أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ**؟ قلت: هو ذاك»(٣).

إنه لما عرض عليه التمني، وفتحت أمامه أبواب السؤال، لم تتوجه نفسه العالية إلى المطالب الدون، إنه يسمو إلى أعلى المراتب، ويطمح إلى أرقى المقاصد؛ مرافقة رسول الله ﷺ في الجنة.

ومن أمثال هؤلاء: عُكاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سمع قول النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فبادر وسارع قائلًا: ادعُ الله أن

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) من شعر الحطيئة، أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٥٢٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٩).

يجعلني منهم، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»(١)، فنال بعلو همته، ومسارعته إلى الخيرات سعادة الدنيا والآخرة!

وهكذا كلما علت بالإنسان إرادته، وارتفعت به همته، كان أقرب لنَيْل المحل الأعلى.

قال الشاعر(٢):

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فتًى؟ خِلتُ إِنَّنِي ... عُنِيتُ فَلَمْ أَكسَلْ وَلَمْ أَتبَلَّدِ

ثمرات علو الهمة:

وللهمة العالية ثمرات عاليات، ينبغي أن تشرئب إليها أعناق الشباب والفتيات، الرجال والنساء، الكبار والصغار.

فمَنْ كانت له همة عالية، فإنه يُحقق كثيرًا من الإنجازات التي يعدها الناس ضربًا من الخيال، فتُقَام الأمم، وتُحقق الإنجازات، وتُكْتب صفحات التاريخ على أيدي بعض هؤلاء الذين همتهم في الجوزاء، وتُطَاول عَنان السماء.

أ- **فمن أهم ثمرات الهمة العالية**: الوصول إلى المراتب العليا في العبادة والزهادة، والعلم والديانة.

فهذا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول على فراش موته: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لِجَرْي الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لمكابدة الساعات، وظمأ الهواجر، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَق الذكر»(٣)، هكذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) من شعر طرفة بن العبد. ديوانه (ص٢٤).

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٥/ ١٠٣).

كانت همتهم، وتلك كانت طموحاتهم ومقاصدهم، رضى الله عنهم وأرضاهم.

ب- ومن ثمرات الهمة العالية أيضًا: أن يكون الإنسان بعيدًا عن سفاسف الأمور ودناياها، فتكون نفسُهُ كبيرةً، مترفعةً عن الرذائل، متنزهةً عن المعايب والقبائح، فيجتمع عنده عن القبائح وازعان: وازع من شرع ربه، ووازع من تمام مروءته، وعلو همته.

ولما فرَّ عبد الرحمن الداخل من العباسيين، وتوجه تلقاء الأندلس، أُهْدِيَت إليه جارية جميلة، فنظر إليها، وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وَإِنْ أنا اشتغلتُ عنها بهمتى فيما أطلبه، ظلمتُها، وإنِ اشتغلتُ بها عما أطلبه، ظلمتُ همتى، ولا حاجة لى بها الآن، وردها على صاحبها»(١).

فكانت من عاقبة هذه الهمة العالية أَنْ أَسَّس هذا الشاب الذي فرَّ وحيدًا فريدًا إلى الأندلس، وقد هزمت دولة قومه، وذبح بعض أهله أمام عينه، أسس هذا الشاب دولةً للإسلام عظيمةً في الأندلس، فبسط العدل، وجيش الجيوش، وقارع سلاطين الروم، فكان بحق صقر قريش الهمام، وفارسها المقدام!

ج- ومن ثمرات الهمة العالية كذلك: إن صاحب الهمة العالية هو الذي تُنَاط به الأمور، وعليه تُعْقد الخناصر، وهو أمر مشاهد معروف، فإن صاحب الهمة العالية هو مَن تُسْند إليه القضايا، وتُوكَل إليه المهام.

وقد قيل: «ذو الهمة وإن حَطَّ نفسه، تأبى إلا العلو؛ كالشعلة من النار يخفيها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعًا»(٢).

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٣).

(٢) نثر الدر، لأبي سعد الآبي (٤/ ١١٢).

وصاحب الهمة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة، فأوقاته مثمرة بنَّاءة، وأنفاسه للخيرات مِعْطاءة.

قال الإمام ابن عقيل الحنبلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لا يحل لى أن أضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لى ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين»(١).

والنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كانت له همة عالية في الطلب والتحصيل والدرس، حتى قال لأقرب تلاميذه ابن العطار: «كنت أقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ؛ شرحًا وتصحيحًا... وكنت أعلق جميعَ ما يتعلق بها من شَرْح مُشْكل، ووضوح عبارة، وضَبْط لغَة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه»(٢)، وقد عدَّد أسماء هذه الكتب التي كان يدرسها في وقت واحد، فإذا هي تجمع الفقه والأصول، والحديث وأسماء الرجال، وأصول الدين، والنحو والبلاغة والتصريف، وغيرها، يقرأ في أُمهات كل علم من هذه العلوم على مشايخه كتابًا مما يعكف عليه الطالب في زماننا، وينقطع له.

وصاحب الهمة العالية هو القدوة للناس، وهو الذي يملك أن يُغير في واقع الناس، وأن يقتدي به الخلقُ.

يقول شيخ الأزهر مُحمَّد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يسمو هذا الخُلُق بصاحبه، فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور، فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد

---

(١) نقله ابن الجوزي من خطه في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/ ١٨١).

(٢) تحفة الطالبين من ترجمة الإمام ابن محيي الدين (ص٥٠).

أو يُزدرى، فإذا هو عزيز كريم، وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخُلق هو الذي يحمى الجماعة من أن تتملق خَصمها، وتسل يدَها من أسباب نجاتها ومَنَعتها.

أما صغير الهمة، فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبةً، ويُطرق إليهم رأسه حِطةً، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»[1].

سبل ترقية الهمة:

أولًا: المجاهدة:

فلا يُنال خُلق كريم، ولا يتحقق مطلوب عظيم إلا بالمجاهدة، فإن النفس تميل إلى الدعة والسكون، وعلى العاقل أن يجاهد نفسه، فيسوقها إلى الخير، ولا تسوقه إلى الباطل!

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فمن جاهد نفسه، هُدِيَ بإذن الله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعرف مَنْ أصابه مرض من صداع وحُمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً، قرأ فيه، وإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحل لك، فإنك تُعينُ على نفسك، وتكون سببًا لفوات مطلوبك»[2].

فهذا- رغم مرضه- يجاهد نفسه ومرضه؛ ليقرأ ويزداد علمًا.

ثانيًا: صدق الدعاء واللجوء إلى الله تعالى:

فالدعاء هو السبيل القاصد لكل مطلوب، فكل ما يطلبه الإنسان في هذه الحياة

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، لمحمد الخضر حسين (١/ ٥٢).

(٢) روضة المحبين، لابن القيم (ص٧٠).

فإن خزائنه عند الله، فاكتساب الكمالات الدينية والخلقية راجع إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فليلزم باب الدعاء، وليقف بساحة الرجاء، وليسأل الله محاسن الأخلاق، كما كان رسول الله ﷺ يدعو: **«اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»**[1].

ثالثًا: المداومة على مطالعة سير أهل الهمم العالية:

على المسلم أن ينافس في قراءة سير السلف الصالحين، وأصحاب الهمم العالية؛ لأن هذا الذي يبعث همته، ويُشجع قلبه، ويشبهه بهؤلاء الكرام السابقين، فإنه إذا صاحب هؤلاء الأكابر، اكتسب من أحوالهم وسيرهم وأخلاقهم.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية، فيقتدي بها المبتدئ، ولا صاحب ورع، فيستفيد منه الزاهد.

فاللهَ اللهَ، وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثارُ من مطالعة كتبهم رؤية لهم...

وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره، فكأني وقعتُ على كنز، فاستفدتُ بالنظر في التصانيف من ملاحظة سِيَرِ القوم، وقدر هممهم، وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم ما لا يعرفه مَن لم يطالع»[2].

رابعًا: مصاحبة أهل الهمم العالية:

صحبة الصالحين تورث الصلاح بإذن الله، وكذا صحبة أهل الهمم والعزائم، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص٤٥٤).

إن صحبة أهل الهمة- في أي جانب من جوانب الحياة- من أعظم البواعث على الهمة العالية؛ لأن نفوس الناس قد جُبلَت على التنافس، وحب مجاراة الأقران، وكراهية التأخر عنهم في أي ميدان.

أما صحبة البطالين، فإنها أضر شيء على الإنسان، فتُعوِّده تضييع العمر والزمان، وتخلي نفسه من الحرص على الفضائل، وكريم الشمائل، فإذا خلت نفسه من الخير، انشغلت بالشر؛ حتى يجره ذلك إلى مقارفة المُحرمات، وانتهاك الحرمات- عياذًا بالله.

فاللهَ تعالى نسأل أن يرزقنا همة تعلو بنا نحو السحاب، وأن يرزقنا عملًا يُقربنا من مراضيه، إنه جواد كريم، بر رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.

البصيرة الثلاثون
في حسن الخُلق

إن حُسن الخُلق من دين الإسلام بمكان عظيم، وقد أثنى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على نبيه ﷺ بهذا المعنى الجليل، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

تعريف الخُلُق:

لمادة الخُلُق في اللغة استعمالات باختلاف ضبط حروفها، ولكنها ترجع مع ذلك إلى أصل واحد.

يقول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخلق يقال في معنى المخلوق، والخَلق والخُلق في الأصل واحد؛ كالشَّرب والشُّرب، لكن خُص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[(١)].

أما الخُلُق في العرف والاصطلاح، فيقول فيه علماؤنا: «الخُلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فِكر ورَويَّة.

(١) المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (ص٢٩٧).

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا، سُميت تلك الهيئة خُلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التى هى المصدر خُلُقًا سيئًا»[1].

وعلى هذا الأساس، فقد عُرِّف الخُلق الحسن بأنه: «مَلَكة نفسانية يسهل على المُتصف بها أن يأتى بالأفعال الحميدة، والسجايا المَرضيَّة»[2].

إذًا نحن نتحدث عن مجموعة من المعانى والصفات المستقرة في النفس، والتي في ضوئها وفي ميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح، ومِن ثَمَّ يُقدِم عليه، أو يُحجِم عنه.

حسن الخُلق وَصْف الأنبياء وأهل الجنة:

عُنى القرآن الكريم بالأخلاق عناية خاصة؛ ذلك أن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، وبها تنال الدرجات العلى، وترتفع مقامات الإنسان في الجنان.

فالأخلاق الحسنة هى سلوك الأنبياء، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧]، أي: كريم على ربه، أو كريم في قومه. وقيل: كريم الصفات، حسن الأخلاق[3].

والخُلق الحسن وَصْف وَصَف الله تعالى به الحُور العِين من أهل الجنة، فقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠].

---

(١) من كلام الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٥٣)، وراجع: تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه (ص٤١).

(٢) فيض القدير، للمناوي (٢/ ٤١٧).

(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٤/ ٩٠).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خَيْرات في الأخلاق، حِسان في الوجوه»[1].

الأَمْر بحسن الخُلق فى القرآن:

وقد أمر الله تعالى بتزكية النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنيئة، والأوصاف الرذيلة، بل علَّق النجاح والفلاح بذلك، وجعل الخيبة والخسران عاقبة ضده، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠].

وبعث الله تعالى أنبياءه ومرسليه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بالتزكية، وتحسين الأخلاق، كما قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨، ١٩]، واختصر نبينا ﷺ وظيفته التى بُعث لأجلها، فقال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[2]، هكذا عرف النبى ﷺ واجبه ودَوْره في هذه الحياة.

وقد أَمَر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بجوامع الخُلق الحسن في آية واحدة، فقال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، فعن جعفر الصادق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية»[3].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية، لَكَفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإن العفو ما عفى من أخلاق الناس، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبزار (٢٤٧٠)، ومشكل الآثار، للطحاوي (٤٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٣١٨).

وأما ما يكون منه إليهم: فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به العقول، وتعرف حسنه، وهو ما أمَر الله به.

وأما ما يتلقى به أذى جاهلهم: فالإعراض عنه، وتَرْك الانتقام لنفسه، والانتصار لها.

فأي كمال للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالَم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟»[١].

وأرشد الله ﷻ في كتابه إلى حسن الخلق مع الكبير والصغير، حتى أمر بالقول الحسن الجميل مع الأولاد الصغار، أو مع الأيتام والمكفولين، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾ [النساء: ٥].

وقال النبي ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[٢].

بل أرشد سبحانه إلى حسن الخُلق حتى مع الكافر، وذلك حين قال لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ [طه: ٤٤]، وذلك عند عرض الدعوة على فرعون.

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣]، فهذه الآية تأمر بحُسن الخُلق، وحُسن القول مع الناس كافة، فدخل فيها المسلم والكافر، وشملت اليهودي والنصراني وغيرهما، ففي هذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قولُهُ لينًا، ووجهه منبسطًا طلقًا مع البر والفاجر دون أن يداهن في دين الله، أو يتهاون بحق من حقوق الله.

---

(١) الرسالة التبوكية، لابن القيم (ص٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٧).

ثم إذا كان هذا هو أمر الله تعالى مع غير المسلم، فكيف هو الخُلق الواجب على المسلم في حق إخوانه من أهل الإيمان؟!

شؤم سوء الخُلق:

جعل الله تعالى الأخلاق مناطًا للثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فأهلك كثيرًا من الأمم السابقة في الدنيا لظلمهم، وفساد أخلاقهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

وقال ﷻ: ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[هود:١١٧].

إنَّ مَن اقترف الرذائل وسوء الأخلاق لا يكون من أهل الفضل، ومن ثَمَّ فهو لا يرشح لمنصب عال؛ لأن أصحاب الأخلاق الرذيلة لا ينهضون لمعالي الأمور، وإنما هم في مُؤخرة القوم، وفي ذيل القافلة.

لذا نجد أن فرعون أراد أن يُلبِّس على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بذلك، وأنه ليس من أصحاب المكارم، فقال: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩]، فرد عليه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه الفِرْيةِ.

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن اللعين أخذ أولًا في الطعن فيه، وإن مثله ممن قرف برذائل الأخلاق لا يرشَّح لمنصب عال، فضلًا عما ادعاه»[(١)].

وكيف لمثل فرعون أن يُجابه موسى بهذه الفرية، وفرعون اللعين هو الذي قتل ما لا يُحصى عدده من الأبرياء، بل من الأطفال الرضع، وَسَامَ بني إسرائيل

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١٠/ ٧٢).

سوء العذاب، ولم يكتفِ بذلك حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عناية السُّنة النبوية بحسن الخُلق:

عُنيت السنة النبوية بحُسن الخُلق، وبينت أن البر هو حُسن الخُلق، كما في قول رسول الله ﷺ: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(١).

ذلك البر هو الذي أمَر به الله تعالى في غير ما آية من كتابه، يقول سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فأهل البر هم أصحاب الأخلاق الكريمة، والتي من أعظمها ما ذكَره الله تعالى في كتابه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

يقول ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول النبي ﷺ: «**البرُّ حُسْنُ الخُلُق**»: «يعني: أن حُسن الخُلق أعظم خصال البر، كما قال: «**الحجُّ عَرفة**»(٢).

أما البر، فهو الذي يبر فاعله، ويلحقه بالأبرار، وهم المطيعون لله ﷻ.

والمراد بحُسن الخُلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المحاولة، والعدل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٧٣)، والترمذي (٨٩٩)، والنسائي في الكبرى (٤١٨٠)، وابن ماجه (٣٠١٥) من حديث عبد الرحمن بن يعمر.

في الأحكام، والبذل في الإحسان، وغير ذلك من صفات المؤمنين»[١].

ثم إن النبى ﷺ حدث عن فضل الخُلق الحسن، فقال: «**مَا مِنْ شَىءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِن صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»[٢].

وأوصى ﷺ بحُسن الخُلق، فقال: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[٣].

حُسن الخُلق فى كلام أهل العلم:

ذكر علماؤنا رَحِمَهُمُاللَّهُ الخُلق الحسن بأقوال لطيفة، فمن ذلك ما قاله الجنيد رَحِمَهُاللَّهُ: «أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قلَّ عمله وعلمه: الحِلم، والتواضع، والسخاء، وحُسن الخُلق»[٤].

وقال الغزالي رَحِمَهُاللَّهُ: «وحُسن الخُلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل بكمال الحكم، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة.

وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي، وكمال نظري، بحيث يخلق الإنسان كامل العقل، حسن الخلق، قد كُفِيَ سلطان الغضب والشهوة، فيَصير بغير مُعلِّم عالمًا، وبغير مُؤدِّب متأدبًا.

---

(١) شرح الأربعين النووية، المنسوب لابن دقيق العيد (ص٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٩٦)، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ٥٢).

والثاني: اكتسابه بالمجاهدة والرياضة.

وأعني به حَمْل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخُلق المطلوب، فمَنْ أراد- مثلًا- أن يُحصِّل لنفسه خُلق الجود، فطريقُهُ أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه، ويواظب عليه تَكلفًا، مجاهدًا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعًا له، ويَتيسر عليه، فيصير به جوادًا، وكذا مَن أراد أن يُحصل لنفسه خُلق التواضع، وقد غلب عليه الكِبْر، فطريقُهُ أن يواظب على أفعال المتواضعين مدةً مديدةً، وهو فيها مجاهد نفسه، ومتكلف إلى أن يصير ذلك خُلقًا له، وطبعًا، فيتيسر عليه»(١).

فالأخلاق يمكن اكتسابها، ويمكن تغييرها بالرياضة والمجاهدة، وقد أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذه الرياضة، وتلك المجاهدة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فالواجب على كل مسلم أن يسعى في تحسين أخلاقه؛ ليزداد بذلك إيمانه، وترتفع عند الله درجاته، فكل خُلُق حسن جميل إنما هو شُعبة من شعب الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٢).

وأخيرًا، يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن جماع الخُلق الحسن، وأعظم الخُلق الحَسن، **فيقول**:

«**وجِمَاع الخُلق الحسن مع الناس**:

أ- أن تصل مَنْ قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء له والاستغفار، والثناء

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليه، والزيارة له.

ب- وتعطي من حرمك من التعليم، والمنفعة، والمال.

ج- وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عِرْض، وبعضُ هذا واجب، وبعضُه مستحب.

وأما الخُلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا ﷺ، فهو الدين الجامع لجميع ما أَمر الله به مطلقًا. هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[(١)].

وحقيقته: المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس، وانشراح صدر»[(٢)].

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربنا، ظلمنا أنفسنا، واعترفنا بذنوبنا، فاغفر لنا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، نحن بك وإليك، تباركت وتعاليت، نستغفرك ونتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١)، ومشكل الآثار، للطحاوي (٤٤٣٥)، وشعب الإيمان، للبيهقي (١٤٢٦).

(٢) مجموع الفتاوي، لابن تيمية (١٠/ ٦٥٨).

الفهرس

البصيرة الأولى: في الاعتصام بالكتاب والسنة ٩
البصيرة الثانية: في الخلاص في الإخلاص ٢١
البصيرة الثالثة: في حقيقة العبادة والعبودية ٣١
البصيرة الرابعة: في تعظيم الفرائض ٣٩
البصيرة الخامسة: في محبة رسول الله ﷺ ٥١
البصيرة السادسة: في محبة الصحابة رضي الله عنهم ٦١
البصيرة السابعة: في محبة آل بيت النبي ﷺ ٧٣
البصيرة الثامنة: في فضيلة العلم وقيمته ٨١
البصيرة التاسعة: في التربية الإيمانية ٩٥
البصيرة العاشرة: في أدب المؤمن ١٠٥
البصيرة الحادية عشرة: في الدعوة إلى الله ١١٧
البصيرة الثانية عشرة: في الفهم والوعي ١٢٧
البصيرة الثالثة عشرة: في نعمة الذرية ١٣٩
البصيرة الرابعة عشرة: في التربية والتزكية ١٤٩
البصيرة الخامسة عشرة: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٧

البصيرة السادسة عشرة: في الوحدة، والائتلاف، والاجتماع، والبعد عن الفرقة والاختلاف ١٦٩
البصيرة السابعة عشرة: في رعاية الأولويات في مسيرة الدعوة والدعاة ١٨١
البصيرة الثامنة عشرة: في إيثار الآخرة على الدنيا ١٩٣
البصيرة التاسعة عشرة: في السعادة الإيمانية ٢٠٣
البصيرة العشرون: في تدبر كتاب الله ٢١٣
البصيرة الحادية والعشرون: في تعظيم رب العالمين ٢٢٣
البصيرة الثانية والعشرون: في فقه قبول العمل ٢٣١
البصيرة الثالثة والعشرون: في معية الله لأهل الإيمان ٢٤٣
البصيرة الرابعة والعشرون: في منزلة المرأة في الإسلام ٢٥١
البصيرة الخامسة والعشرون: في الاحتساب على الغلو ٢٦١
البصيرة السادسة والعشرون: في محاسبة النفس ٢٧١
البصيرة السابعة والعشرون: في المخرج من الفتن ٢٧٩
البصيرة الثامنة والعشرون: في أثر الموعظة ٢٨٩
البصيرة التاسعة والعشرون: في علو الهمة ٢٩٧
البصيرة الثلاثون: في حسن الخُلق ٣٠٧
الفهرس ٣١٧

بحمد الله تم